أحمد فريد

الحب ... بعد المساومة !

الناشر
دار قباء
للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار
الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية
فريد ، أحمد

الحب بعد المساومة / أحمد فريد
٠- ط ٠١ - القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦
١٦٨ ص ؛ ٢٠ سم
رقم الإيداع : ١٣١٥٣ / ٢٠٠٦
تدمك 2 - 518 - 303 - 977
١- القصص العربية القصيرة
أ- العنوان

٨١٣,٠١

الناشــــر
دار قـــــبـاء
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
E-Mail: egysaudi@link.net
الإدارة : (16) عمــارات العــبور شــارع صــلاح ســالم
الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة
تليفاكـــس : 02/2621365
محمـــــول : 012/3140315

2006 م

الحب بعد المساومة !



إهـــداء

إذا كـانت طعنـات الظـالمـين

تكشفهـا سـوءات النـوايـا

فمـا بـال جـراح المكلـومـين

وطعناتها من ضحايا الضحايا

1

كانت الشمس قد بدأت تلملم أشعتها بتكاسل ، فى الوقت الذى تحركت فيه المجاميع المغادرة للمطار الخليجى ، فى اتجاه الطائرة المتجه إلى القاهرة ، بناء على تعليمات موظفة الاستعلامات ، والتى حددت رقم البوابة المخصصة للرحيل.

جلس صفوت حلمى بجوار النافذة حسب المقعد المخصص له بالتذكرة، وتأكد من حزام الأمان حول خصره وقبل أن يطلب منه أحد ذلك .. وراح يتابع حركة العاملين تحت جناح الطائرة ورجال التأمين وشحن الحقائب.

تحول برأسه نحو الجالس بعد ما شعر بالآخر وهو يجذب طرف الحزام بقوة حتى كاد يفجر أمعاءه .. فهمس له بتأدب قائلاً:

ـ أعتقد حضرتك جالس على الحزام المخصص لمقعدك.

تململ بصعوبة الرجل البدين وهو ينظر إلى جانبه وعند قدميه ، وحاول أن يلتفت إلى ظهر المقعد فوجد صعوبة بالغة ؛ نظرًا لالتصاق عنقه المكتظ باللحم فوق كتفيه.

أدرك صفوت ما يعانيه الرجل ، فمد يده وسحب طرف الحزام برفق من أسفل الرجل ثم تركه له ليكمل الباقى واستدار مرة أخرى للنافذة بعد أن انتهى الجميع من أعمالهم وبدأت إشارات التحذير والتعليمات تضيء مع بدء تشغيل موتورات التحرك.

وانطلقت الطائرة تلتهم " الران واي " بسرعة فائقة ، وشاء حظه العثر أن يستقر كف يده بين مسند المقعد وبين قبضة الرجل ، وكلما ارتفعت الطائرة عن الأرض ضغط الرجل بكل قوته على المسند حتى كادت أصابع صفوت أن تطحن ، وهو يكبت صراخه من شدة

الألم. وما أن حلقت الطائرة إلى الارتفاع الذى يسمح له بالتخلص من حزام الأمان التفت إلى الرجل وهو يحاول تملص كف يده من قبضته الحديدية فوجده فى حالة تثير الإشفاق ، حيث التصقت رأسه الكروية بالمقعد وقد أغمض عينيه بشدة وهو يحرك شفتيه فى تمتمة غير مسموعة ، وكلما حاول أن يسحب يده زاد الرجل من تشبثه بها مما اضطره أن يلكزه برفق فى كتفه وهو يقول :

ـ من فضلك اترك يدى .. فالطائرة أقلعت .. ولا داعى للحزام أيضًا.

تلفت البدين حوله والذعر يملأ مقلتيه .. ثم ردد وهو يحاول أن يبدو متماسكًا:

ـ ما شاء الله .. قائد الطائرة على درجة عالية من الكفاءة .. فأنا لم أشعر بحركة الطائرة ولا حتى بإقلاعها .. نحن فى الفضاء الآن ... أليس كذلك ؟!!

لم يجبه صفوت وانشغل عنه بإجراء بعض التدريبات لأصابع يده لكى يخلصها من التقلصات التى أصابتها نتيجة اعتصارها فى

كف الرجل ، وعاد إلى النافذة يتابع الفراغ من حوله لعله يجد ما يشغله عن جاره وعن إحساسه بالألم فى يده.

ولكن .. ما كان يرغبه صفوت شىء ، وما يريده الرجل الآخر شيئًا مختلفاً حيث مال بجسده قليلاً فى محاولة للنظر من خلال النافذة ليثبت لنفسه بأن الأمر عادى ، وهو فى الحقيقة لا يدرك أن صفوت قد وصل إلى حالة الاختناق بعد أن سقط صدره ضحية لكتف الرجل البدين ، فضغط على رئتيه حتى كادت أن تنفجر. فانكمش فى اتجاه النافذة ليفسح للرجل متابعة الأمر كما يريد. ولكن الآخر استغل المساحة الجديدة وكأنه متعمد ذلك وازداد ميلاً نحوه وقال بنبرة منزعجة :

– ما هذا الذى مرق من أمامنا .. أرأيت هذا الشىء الذى مر كالومضة؟

أجاب صفوت بصوت متحشرج وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة:

– إنها طائرة أخرى تسير فى الاتجاه المعاكس.

اعتدل الرجل ونظر إلى عينيه باندهاش .. ثم ردد:

ـ طائرة ثانية .. أهكذا تكون سرعتها .. فما بال طائرتنا وكأنها لا تسير ؟!

لم يعره اهتمامًا لعل الرجل يفهم إنه لا يرغب فى الحديث ، ولكن الآخر واصل متسائلاً بإصرار :

ـ كم تكون سرعة الطائرة تقريبًا !!

أجابه باقتضاب دون أن يلتفت إليه:

ـ تسعمائة كيلو متر فى الساعة تقريبًا.

استدارت رؤوس الركاب فى اتجاهما ليستطلعوا مصدر الصيحة القوية التى صدرت من الرجل البدين عندما صرخ فى أذن صفوت صائحًا :

ـ ماذا قلت .. تسعمائة كيلو متر !!

لم يجد صفوت مفرًا من أن يستوعب حالة ذعر الرجل فاعتدل

فى اتجاهه ليوليه اهتمامه ويشعره بالأمان .. وقال بهدوء :

ـ الطائرة أكثر أمانًا من أى وسيلة مواصلات أخرى .. يبدو أن حضرتك لم تجربها من قبل.

أجاب مسرعًا :

ـ أجل ..أجل فى الحقيقة أنا.

ولكنه فاجأه بلكزة قوية فى طرف ذقنه لكى يدير رأسه نحو النافذة .. مرددًا فى هلع :

ـ انظر .. انظر ما هذا .. الطائرة وكأنها تغوص فى المحيط.

أجابه بنبرة أكثر هدوءًا.

ـ نحن داخل السحاب .. وبعد لحظات سنخرج منه.

و .. قبل أن يموت الرجل .. بادره صفوت متسائلاً :

ـ هل تعمل فى إحدى دول الخليج ؟

أجاب وعيناه مسلطتان تجاه النافذة :

ـ لا.

عاد ليشغله ويسأله من جديد :

ـ أكنت فى زيارة ؟!

همس وهو على حالته :

ـ لا.

سأله بإلحاح.:

ـ هل تعمل فى التجارة ؟

خفت حدة توتره قليلاً وهو يقول :

ـ أنــا بحار.

ـ حضرتك قبطان بحرى ؟

لأول مرة تنفرج أساريره وأجاب قائلاً :

ـ ليس إلى هذا المستوى .. ولكنى أعيش فى البحر منذ أكثر من

سبع سنوات.

ـ أنا أيضًا أعشق البحر .. ولكن للأسف لم تتح لى الظروف أن أسافر فوق باخرة.

وكانت هذه اللحظة هى بداية تحول حالة الرجل .. وبدأ يسترسل فى ثرثرة شيقة عن عالم البحار وحياة البحارة .. والموانئ التى رآها وكذلك أنواع البشر .. والنجوم التى تضىء الأمواج فى الظلام ، وطائر النورس .. والدرافيل وهى تتقافز حول السفن .. المهام المتعددة التى تقلب عليها بدءًا من دهانات السوارى .. وتنظيف أسطح السفن . . ورئاسة بعض العاملين .. والفرق بين السفن التجارية والبواخر التى تنقل الركاب .. وكيف مارس التجارة البحرية من ميناء لآخر .. وعن العملات النقدية للدول المختلفة .. وسيطرة الدولار .. وشبح اليورو و .. بدأت تسترخى عضلات وجه الرجل أثناء حديثه المتواصل .. وكانت فرصة جيدة لأن يتأمله صفوت.

رآه فى العقد الثالث تقريبًا من عمره ـ شعره قصير جدًا بلون

الليل بالرغم من بشرته الشديدة البياض ، وعيناه مسحوبتان كأهل آسيا ، وحجمه ينافس أشهر أبطال المصارعة الحرة ، كل تعبيرات وجهه توحى بالطيبة ونقاء النفس . و ..

انتبه إليه وهو يسترسل قائلاً:

ـ أنا اسمى ثابت كريم ، من مواليد دمياط .. يتيم الأب ، كنت أعيش مع والدتى وجدى .. آه ..

وابتسم بطيبة وبراءة شديدة ، ثم استطرد :

ـ الله يسامحه جدى ، ربانى على أن أكون نباتيًا ، وفى بعض الأحيان كنت أتذوق طعم الطيور الداجنة. بالرغم من ثراءه الفاحش.

واتسعت ابتسامته وهو يواصل قائلاً :

ـ لا تنظر إلى حجمى الآن وضخامة جسدى ، فأنا منذ سبع سنوات كنت نحيلاً كجزع النخل ، فجدى كان صاحب مبدأ

الاكتفاء الذاتى نأكل الخضراوات من أرضنا ونشرب ألبان بهائمنا .. ونطهو الطيور التى أصابتها الشيخوخة .. ونخبز من قمحنا .. و ..

أطلق ضحكة مسموعة قبل أن يقول :

– لم يكن ينقصنا غير أن نرتدى صوف الخراف وجلد الماعز.

قاطعة صفوت بشغف :

– أكان لهذه الدرجة بخيلاً ؟!

تقلصت ملامح وجهة فجأة.. وقال بجدية غير متوقعة :

– أنا لا أسمح لأحد أن يتهم جدى بالبخل.

تراجع صفوت برأسه قليلاً وقد بدت عليه علامات التوتر وردد بصدق :

– أنا آسف .. لم أقصد أن.

ولكن الآخر فاجأه بضحكة مقهقهة .. ثم قال :

ـ هل صدقت غضبى .. فأنا أداعبك فقط .. فى الحقيقة جدى هذا لم أجد له مثيلاً فى حياتى ، ولا أعتقد أننى سأرى مثله يومًا ما..

واستمر فى ثرثرته غير المزعجة ، ينتقل من حديثه عن والد أمه إلى أحاديث ومواضيع أخرى مثيرة للاهتمام .. وكيف ترك التعليم عند المرحلة الثانوية وعمل فى الأراضى التى يمتلكها جده .. إلى أن قاطعه صفوت مندهشًا عندما أخبره الآخر بأنه يجيد عدة لغات قراءة وكتابة فيتساءل باهتمام :

ـ عدة لغات .. كيف .. وأنت !

ثم صمت لكى لا يشعره بالحرج وبأنه قد تمادى فى مبالغاته ، ولكن ثابت كريم أكد المعلومة قائلاً :

ـ نعم ، أنا أتحدث وأكتب أربع لغات أجنبية : الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية ، بالإضافة طبعًا للعربية.

تساءل صفوت باندهاش وتعجب حقيقى :

ـ كيف ؟!!

و .. أخبره كيف ظل لمدة ست سنوات لا هم له إلا تعلم اللغات عن طريق المعاهد والأماكن المتخصصة فى بلدتهم والبلاد القريبة منها ، وكيف كان يقتصد من البقشيش الذى يحصل عليه من تجار الموالح والخضراوات الذين كانوا يشترون المحاصيل من أراضى جده.. وأيضًا ما كانت تستطيع أن توفره له أمه فى غيبة عن أبيها .. لقد حباه الله بتلك الموهبة فى تعلم اللغات ، بالرغم من عدم تحمسه للتعليم المنتظم ، إلى أن وصل لسن الخامسة والعشرين وقرر الرحيل إلى بلاد الغربة بعيدًا عن صرامة جده وحياته النباتية التى جعلته رشيقًا فى السابق على غير رغبته.

بدا صفوت مهتمًا بالقصة وهو يسأله :

ـ ويا ترى كيف سمح لك جدك بالسفر .. وكيف أعطاك المال ؟!

قهقهة مرة ثانية وبدأ كرشه يتثنى تحت حزام مقعده .. ثم استطرد مبتهجًا :

ـ جدى كان حريصًا دائمًا على أداء فريضة الحج كل عام .. وفى كل مرة قبل سفره كان يوصينى بالاهتمام بالنعاج التى ستنجب، وبحظائر الدواجن عندما تفقص ، وبالأبقار التى تتأهب للولادة، مقابل أن يجعل نتاجهم من نصيبى وعلى اسمى .. وطبعًا عندما يعود لا يحدث شئً مما قاله .. وفى المرة الأخيرة جمعت حصيلة نتاج النعاج وبعض الأبقار وبعض المئات من الكتاكيت الواردة من فقص البيض وبعتها جميعًا بناء على توصية جدى المعتادة وبثمنها حصلت على تذكرة السفر على إحدى البواخر اليونانية ، ومنذ هذا اليوم وأنا أعيش فوق ظهر السفن والبواخر الكبيرة وعشقت مهنة البحار.

ـ ولماذا تعود إلى بلدك بالطائرة إذن ؟!

وما كاد يسترسل ثابت إلا أن الكلمات تحجرت فى حلقه عندما ترامى إلى مسامعه صوت المضيفة وهى تطلب من جميع الركاب التأكد من ربط الأحزمة لأن الطائرة فى طريقها للهبوط فى مطار القاهرة.

ألقى بنظرة سريعة إلى خصره .. ثم رفع رأسه ينظر إلى إحدى المضيفات التى جاءت تتأكد من التزام الركاب بالتعليمات بنظرة مصحوبة بالفخر لأنه لم يتخلص من الحزام منذ أقلعت الطائرة طوال الرحلة.

وبهدوء سحب صفوت يده وضمها تحت إبطه خوفاً من إعادة الكرة مرة ثانية وتذوب أصابعه تحت ضغط ارتباك جاره خفيف الظل والأعصاب.

ولكن ثابت فاجأه قائلاً بابتسامة طيبة:

ـ لا تخش على يدك .. فأنا لم أعد منزعجًا .. واعذرنى ، فكانت تلك المرة الأولى فى حياتى التى استقل فيها طائرة .. وأصبحت الآن متأكدًا إنها أكثر أمانًا من أى مواصلة أخرى .. فأنت لم تشاهد الأمواج التى ترتفع فى بعض الأحيان إلى عشرات الأمتار .. أو تتعايش مع الأعاصير والعواصف .. وأكيد كان سيصبح حالك مثل حالى لو اضطرتك الظروف لأن تركب البحر لأول مرة فى رحلة طويلة .. و .. .

فى هذه الأثناء هبطت الطائرة إلى أرض مطار القاهرة .. وبدأت السيارات تنقل الركاب إلى صالة المطار ، وتجمعوا حول سيور الحقائب . فبادره صفوت قائلاً :

ـ حمدًا لله على السلامة .. وأنا سعيد بمعرفتك.

ومد يده مصافحًا وهو يتأهب للانصراف .. فاستوقفه قائلاً :

ـ إلى أين .. ألن تنتظر حقائبك ؟!

صمت لحظة قبل أن يجيبه قائلاً :

ـ أنا بلا حقائب.

اتسعت عينا ثابت بنظرة ملؤها الدهشة .. ثم تساءل :

ـ كيف .. أقصد .. أكنت فى زيارة خاطفة ؟

فلاحقه صفوت بلا تردد :

ـ أنا مغترب عن القاهرة منذ سبع سنوات

ـ وتعود بلا حقائب ؟!

أجاب بصوت لا يكاد يسمع :

ـ يكفى أنى عدت.

فاجأه بشغف:

ـ أنا لم أعرف حتى اسمك.

حاول أن يبدو مبتسمًا .. ولكنه لم يستطع وقال :

ـ اسمى صفوت .. صفوت حلمى.

انشغل عنه برهة واستخرج قلمًا من سترته وسجل بعض الأسطر فوق تذكرة الطائرة ومدها إليه قائلاً بصدق :

ـ هذا عنوانى فى دمياط واسم عائلتى ، أرجو أن أراك مرة ثانية.

تناول منه التذكرة .. ثم قال فى شبه ابتسامة :

ـ لم تقل لى لماذا عدت مضطرًا لركوب الطائرة ؟

قال بهدوء تغلفه البراءة :

ـ استلمت برقية من القبطان فى ميناء الكويت .. بأن جدى مات.

ـ البقية فى حياتك.

وضع كفه الغليظ فوق كتفه وربت عليه برفق .. ثم قال:

ـ أتعدنى بأن أراك ثانية ؟

أومأ صفوت برأسه إيماءة خفيفة قبل أن يقول :

ـ أعدك .. و ..

ما كاد يستدير حتى توقف مرة أخرى والتفت إليه قائلاً :

ـ سأحضر إلى زيارتك ولكن بشرط.

أسرع ثابت متسائلاً :

ـ ما هو ؟ كل شروطك ستنفذ.

قال وهو يتأهب للانصراف :

ـ أنا لست نباتيًا.

أجاب بسرعة وهو يضحك.

ـ على ما أذكر لدينا فى المزرعة ستون بقرة .. سأذبح لك واحدة منها .. وأرجو أن يسامحنى جدى الله يرحمه.

وبالرغم من أن صفوت استدار منصرفًا من أمامه إلا أنه لم يستطع العودة للبحث عن حقائبه ، وراح يتأمله من ظهره ولاحظ قوامه الرياضى وشعره الذى امتزجت خصلاته بلون الليل والفجر .. وتذكر حاجبيه الكثيفتين ونظرات عينيه اللتين بالرغم من شرودهما ترسلان من مقلتين لها صفات مغناطيسية .. وبشره بلون صخور الأهرامات.

و .. بعد أن اختفى من أمامه بين زحام القادمين .. همس إلى نفسه مرددًا :

ـ حقًا ، فراق الغربة فى ميناء المطار .. وليست فى موانئ البحار.

ثم استدار باحثًا عن حقائبه فوق السيور.

2

سبع سنوات من الغربة .. ولم يكن فى استقباله غير الليل.

كان يعلم أن لا أحد سيكون فى استقباله ، ولكنه تمنى أن تكون عودته نهارًا لعله يتبين الأشياء من حوله ، تمنى أن يرى الوجوه والأشجار والزهور ، أو يسمع تغاريد الطيور وهى تسبح بحرية فى الفضاء ، تمنى أن يرى الحقيقة واضحة فى أى شىء حتى ولو كانت لا تخصه.

دلف داخل سيارة أجرة .. وقال باقتضاب للسائق :

ـ شبرا من فضلك.

آلمته المقارنة ما بين لحظة وداعه وسفره منذ سبع سنوات وبين لحظة عودته ، وكأنه حمل غربته بين أضلعه وهو عائد إلى وطنه. فرق كبير .. بين دفء المشاعر التى احتوت كيانه كله أثناء سفره من قبلات وأحضان أمه ووصايا أبيه ودعواته ومزاح شقيقته الصغرى وطلبات أخيه المدلل ، وبين أن يستقبله الليل بلفحات الخريف. سحبته تلك المقارنة إلى الماضى.

تذكر أباه الرجل الطيب الذى ضحى بكل غال من أجلهم ، وأفنى سنوات عمره من أجل تحقيق أماله وأحلامه فى أبنائه ، وهو على رأسهم بصفته الأخ الأكبر ، الأب الذى لم يبخل قط لا بصحته ولا بموارده المالية القليلة حيث يعمل موظفاً فى هيئة المواصلات كمحصل فى الأتوبيسات العامة ، تذكره وهو يعود كل ليلة وقد أعياه الوقوف على قدميه ساعات طويلة أثناء عمله ، وبالرغم من ذلك كان دائمًا ما يسعى لإخفاء إرهاقه وهو يطمئن على أحوال أفراد أسرته فردًا فردًا ، تذكره وهو يردد بحب وإصرار :

.. نفسى اطمئن عليكم وأراكم فى أحسن المراكز.

.. سأفعل المستحيل لأن تستكمل تعليمك الجامعى يا صفوت.

.. سأبيع أجزاء من لحمى لكى أفرح بك يا سوسن وأنت فى بيت زوجك.

.. سأحرم نفسى من الطعام إلى أن أراك يا هشام مهندسًا.

.. ربنا يحميك يا أم أولادى يا غالية.

وجاء الدور الذى تخطفه الذكرى عندما تخرج فى كلية التجارة وأسرع لكى يقدم نفسه لينتهى من فترة التجنيد .. ثم .. بدأت رحلة البحث عن العمل. الرحلة التى زادت من أعباء والده النفسية قبل المادية. إلى أن ترقرقت بارقة أمل فى حياتهم .. أمل طريقه محفوف بالأشواك. أشواك الغربة .. وأشواك عدم القدرة.

حيث فاجأ أباه بأنه وجد أحد المكاتب المتخصصة لسفر الشباب التى توفر عقود عمل مغرية لهم مقابل بضعة آلاف من الجنيهات.

وبالرغم من أنه كان أملاً مفقودًا. إلا أن والده أصر على تحقيقه ، تغلب على مشاعره وهو يرى توسلات زوجته بألا يسمح باغتراب ابنها الأكبر ، وتحايل على ظروفه المادية وقلة حيلته وذهب يستجدى ويلح على أصحاب مكتب السفريات أن يقبلوا منه شيكاً مؤجلاً لفترة محدودة مقابل إضافة مبلغ آخر على المبلغ المطلوب.

يومها كان يردد بفخر :

.. أنا اليوم سعادتى لا توصف .. ابنى صفوت سيحقق أحلامه .. وسيساند أخاه هشام الذى التحق بكلية الهندسة حتى يصبح مهندسًا ، سيوفر لسوسن كل الإمكانيات التى ترفع من شأنها أمام خطيبها القادم ، وسيعولنى أنا وأمه بعد هذا المشوار الطويل .. فلماذا الحزن والخوف إذن !!

و .. سافر صفوت إلى البلد الخليجى .. وهو يحمل رضا ودعوات الجميع ويضم فى قلبه أحلام المستقبل المشرق.

التحق بالعمل كمحاسب فى شركة كبرى ، استطاع خلال

الأسابيع الأولى من عمله أن يحوز على تقدير الكفيل وإعجابه به ، كان يعامله كابنه الشاب الذى فى مثل عمره. وهذا ما دفع بصفوت لأن يبوح للرجل بكل ظروفه التى تركها فى بلده قبل أن يأتى إليهم.

شعر بالأمان وسطهم. وازداد ارتباطًا بابن صاحب العمل. كانا يقضيان أغلب الوقت معًا .. خفف عنه غربته. شعر به عوضًا مؤقتًا لغياب أخيه هشام.

ولكن الواقع كان له رأى آخر.

قبل أن ينقضى الشهر الأول من تسلم عمله. اصطحبه ابن الكفيل فى سيارته الجديدة ليريه إمكانياتها الحديثة وانطلق به من طريق إلى آخر وهو يعدد له مزاياها ، ولم يكن يدرى أن من ضمن مزايا السيارة الجديدة قدرتها الفائقة على الاغتيال والقتل. حيث فقد الشاب سيطرته على عجلة القيادة بسبب سرعته المجنونة وغير المسئولة وأطاح بثلاثة أشخاص يسيرون على أقدامهم وأرداهم جميعًا صرعى ، وتمزقت أشلاؤهم فى ثوان معدودة وتحولت النزهة إلى

كابوس قاتم وحالك المصير.

وكانت المقايضة المشئومة .. بالمنطق الدنيوى بعيدًا عن عدالة السماء .. حيث جاءه الأب الكفيل يعرض عليه المساومة فى صورة الفرض. وتكاتفت معه كل ظروف صفوت من مذلة القهر وهوان الاحتياج ، أخبره الرجل بأن ابنه سوف يدفع الثمن باهظًا جدًا سواء ماديًا أو ثأريًا ، وسوف يضيع شبابه ومستقبله ومستقبل عائلته بأكملها نتيجة الصراعات التى سوف تحدث فيما بعد. ولكن إذا قبل بأن يتحمل هو وزر ابنه ويدعى على نفسه بأنه قد أخذ السيارة فى غفلة من ولده وانطلق بها وحدث ما حدث ، فسوف يسدد كل الأموال التى يحتاجها هو وعائلته فى مصر. وذلك مقابل بضع سنين أو أشهر من حريته ويعود بعدها غانمًا ظافرًا ويحقق لأبيه وعائلته الحلم والثراء والاستقرار. وهو فى كل الحالات غريب .. ولا فرق بين غربة وأخرى.

و .. قبل صفوت الاتفاق المشئوم.

المقايضة بحريته مقابل إنقاذ أسرته ، أن يتحمل شبح

الكابوس من أجل أن يحقق لهم الأحلام الوردية ، كان يخشى على أبيه من صدمته وخيبة أمله فيه، أفزعه ألا يستطيع أخوه أن يستكمل تعليمه فى كلية الهندسة .. أضناه التصور أن يتأخر زواج سوسن بسببه .. أذله الإحساس بحسرة أمه عليه إذا ما عاد فاشلاً.

قبل المقايضة .. لأنها لا تمثل شيئًا أمام كل ما فعلته أسرته لأجله.

قبل المقايضة .. فكانت نتيجتها السنوات السبع.

سبع سنوات وراء القضبان ، وهو لا يعلم شيئًا عن عائلته وكل ما يتمناه ويرجوه ألا يعلموا هم شيئًا عنه.

سبع سنوات .. لا يرى إلا الوجوه المتجددة من السجناء ولا يسمع غير نحيب قلبه المغترب.

و .. انتبه على صوت السائق وهو يتساءل :

ـ نحن فى شبرا الآن .. أى شارع أسلكه.

سحب هواءً إلى رئتيه بقوة ، وكأنه يخفى ذكرياته عن الرجل .. ثم قال :

ـ استمر قليلاً فى السير .. أمامنا تقريبًا خمس دقائق.

ثم عاد يحاور نفسه هامسًا.

.. ترى بماذا أتعلل عن سبب تأخر رسائلى عنهم .. كيف سأواجه أبى وأمى .. لعلهما يغفران لى غيابى بعد أن سددت لهم احتياجاتهم المادية .. لابد وأن هشام أصبح اليوم مهندسًا .. لن أستطيع ذكر الحقيقة لهم .. بماذا أقول للجميع .. كيف ستتحمل أمى إذا علمت إننى كنت سجينًا .. وكيف ستكون نظرة الآخرين لى ؟ ويجب أن أجد تبريرًا منطقيًا .. و .. .

طلب من السائق أن يتوقف أمام بوابة أحد المنازل القديمة.

لم يعد يفكر فى شىء إلا فى لقائهم .. كان يقفز درجات السلم بسرعة فائقة حتى أنه وصل فى ثوان إلى الدور الثالث. وبعد عدة طرقات اعتاد عليها قبل سفره. ظهر هشام الذى وقف متصلبًا فى مكانه بعد أن طواه الذهول من شدة المفاجأة ، فاحتضنه صفوت بقوة إلى صدره وهو يمطره بالقبلات ولكن رد فعل أخيه كان كافيًا

لكى يتراجع بخطوة إلى الوراء .. وصاح مترددًا :

ـ ماذا بك يا هشام .. ألا تصدق انك ترانى .. كيف حالك يا حبيبى.

حاول أن يتجاوزه ويدخل إلى الردهة وهو يستطرد قائلاً :

ـ وأبى وأمى كيف حالهما .. وسوسن كيف.

ولكنه مرة ثانية يصطدم بالنظرة الفاترة التى تطل من عين أخيه وهو لا يزال ساكنًا فى مكانه دون حراك وكأنه يتعمد عدم السماح له بالدخول.

لم يهتم ودلف إلى الداخل وهو يقول :

ـ ما هذه الإضاءة الخافتة ؟ أين الجميع ؟

وما كاد يتجه إلى إحدى الغرف ، حتى استوقفه هشام قائلاً بحزم :

ـ انتظر يا صفوت لا تتقدم أكثر من ذلك.

التفت إليه منزعجًا .. لاحظ أن أخاه يرتدى "أفرولاً" كالذى

يرتديه عمال الورش وقد لطخت يداه بالشحم الأسود.

حاول أن يجد مبررًا لتصرف أخيه .. فقال بتردد أكثر :

- ألهذا لم تحتضنى ؟! كنت تخشى على ملابسى! يا رجل حرمتنى من عناق أكبر باشمهندس فى مصر.

أجاب هشام باقتضاب وهو يحتفظ بنظرته القاسية :

- تقصد أصغر أسطى ميكانيكى.

تمتم فى همس :

- ميكانيكى !!

- نعم ميكانيكى .. فأنا لم أكمل دراستى .. وأعمل فى ورشة سيارات.

جلس على أقرب مقعد بجواره وكأنه يتهاوى .. ثم تساءل بحسرة :

- لماذا .. لماذا يا هشام ؟

اقترب منه بخطوة متحفزة وكأنه يتأهب لأن يركله بقدمه ، ثم تمالك وهو يجيبه بغضب مكبوت :

ـ ألا تعرف لماذا ؟! أنت السبب ، أنت اللعنة والخراب والدمار الذى حل علينا منذ ولادتك ، أنت نبتة الشيطان التى زرعها بيننا لتلتهم سعادتنا ورضا بالنا. والآن جئت بكل وقاحة تسأل لماذا !!

نهض بصعوبة ليواجه أخاه الثائر .. وهمس بحذر :

ـ هل علمتم بالحقيقة ؟!

ـ الحقيقة الوحيدة التى نعلمها هى أنك ميت فى نظرنا ، وبأنك ليس لك مكان بيننا.

أثارته كلمات أخيه المنفعلة .. فصاح صارخًا :

ـ أخرس .. كيف تخاطبنى بهذا الأسلوب وبأى حق تطلق هذه القرارات.

لاحقه فى تحدى قائلاً:

ـ بحق الحقيقة التى لا تعلمها أنت .. سأخبرك بها وسأتركك لضميرك إذا كان لا يزال عندك ضمير ، بأن تأخذ أنت القرار

الذى يناسبك .. و .. .

وأخبره بكل شىء .. أخبره لكى تكتمل مأساة حياته.

كانت الحقيقة أقسى من كل توقعاته . أحرفها كأسنة الرماح راحت توخزه فى قلبه بلا رحمه .. كسياط من اللهيب وهى تتهاوى على جسده تمزقه إربًا.

أخبره كيف طال انتظار أبيه لكى يرسل إليه المبلغ المتفق عليه لكى يسدد قيمة الشيك الذى تعهد به لصاحب مكتب السفريات ، وكيف قهره الذل والمذلة وهوانه أمام الآخرين. وكيف لم يتحمل أبوه صدمة تهديد الرجل لـه وبأنه لا محالة سيدخل السجن .. فآثر دخول القبر.

كيف مات أبوه ودموع الحسرة تعوق إغلاق جفنيه بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة ، أخبره كيف نهش الحزن كيان أمه الضعيفة وراح بنخر فى عظامها الواهنة حتى سقطت مشلولة لا حول لها ولا قوة ، ترقد فوق فراشها وكأنها داخل قبرها لا صوت ولا حراك.

أخبره عن سنوات القهر وكيف ضحى باستكمال دراسته من

أجل أن يعمل فى ورشة ميكانيكا لكى يجد قيمة الدواء لأمه القعيدة وأن يوفر الخبز اليومى المنغمس فى مرارة الاحتياج .. وكيف قبرت أختهما الصغيرة شبابها وأقدمت على قرار كالانتحار وارتضت الزواج من أرمل لديه أربعة أطفال لتقوم بخدمتهم جميعًا مقابل أن توفر قيمة غذائها من أجلى ومن أجل والدتها .. و .. .

وصمت للحظات حاول فيها أن يسترد ثباته بعد أن تحشرجت نبرات صوته بالرغبة فى البكاء .. ثم استرسل بهدوء :

- واليوم تعود بعد كل هذه السنين وتسأل ماذا حدث !!

ولم يكن صفوت أفضل حالاً من أخيه ، حيث مالت بشرته للاصفرار وكأن الدماء قد تجمدت فى عروقه ، وجحظت عيناه فى نظرات لا إرادة أو تحكم فيها. ووقف مشدوها كالصنم الحجرى الذى لا حياة فيه. ولولا ارتعاشة خفيفة بين شفتيه لظن أخاه أنه قد مات وهو واقف.

قال بصعوبة وكأنه يستخرج الأحرف من أحشائه :

ـ أريد أن أراها.

أجابه بإشفاق صادق :

ـ يكفى يا صفوت ما أصاب أبانا .. أترك أمنا تعيش ولو بأنفاسها فقط.

همهم كالمسحور :

ـ سأجعلها لا تشعر بوجودى .. سأراها من بعيد .. أرجوك يا أخى.

أشار إليه برأسه دون أن يتفوه بكلمة واحدة .. فاتجه صفوت نحو الغرفة وفتح بابها برفق وأطل برأسه وكل كيانه يرتجف .. و .. رآها ممددة فوق الفراش والغرفة يعشش فيها الظلام. السكون رهيب. ورائحة الموت تسبح فى أرجاء الحجرة .. شعر بنفسه وكأنه سقط فجأة داخل بئر عميق مظلم .. بئر صحراوى جفت مياهه منذ آلاف السنين .. حاول أن يتبين وجهها ولكنه لم يستطع .. كانت مغمضة العينين وكأن القدر كان أكثر رحمة منه فجعلها لا تراه ولا تشعر بوجوده.

استجاب ليد أخيه وهو يجذبه برفق فى اتجاه الردهة مرة ثانية ثم أغلق على أمه الباب أو التابوت.

وما كاد صفوت يخطو خطوتين حتى انهار راكعًا فوق الأرض وهو مستسلما لنحيبه الملتاع ، وجسده يهتز بقوة وكأنه يتلقى الركلات من كل البشر واللعنات بصوت القدر.

رفع رأسه فى اتجاه هشام وقد حالت الدموع أن يراه جيدًا وهمس بمذلة متسائلاً :

ـ وسوسن أختى .. أين ؟

قاطعة هشام وهو ينهضه برفق .. ثم قال :

ـ أتركها هى أيضًا يا صفوت .. فغيابك هو المبرر الوحيد لسبب كآبتها وتعاستها أمام زوجها .. أما إذا ظهرت لها فسيكتشف زوجها بعد ذلك أن شقاءها بسببه وليس بسبب فقدانك .. فلا تدمر حياتها .. حتى ولو كانت حياة تعسة.

أومأ برأسه إيماءات خفيفة دليلاً على اقتناعه ورضائه بحكم الواقع .. ثم قال بصوت متهالك :

ـ عندك حق .. جميعكم لديكم الحق .. لقد أصبحت أنا نذير الشؤم بينكم. أنا السبب فى كل شىء .. وحتى لو حاولت أن أدافع عن نفسى فلن يجدى الأمر .. لن يعود أبى إلى الحياة .. ولن تشفى أمى من غفوتها .. ولن يسامحنى أحد .. لقد لطخت وجوهكم بدمائى دون قصد لأننى أنا المذبوح. شردت استقراركم وحريتكم .. وأنا السجين وراء القضبان ، تسببت فى اغتيال أحلامكم ، وأنا المسلوب حتى من أحلامى.. نعم أنا السبب لأنى ضحيت بنفسى دون أن أدرى بأننى أضحى بكم وليس لأجلكم. فرضت مشاعر الأخوة على وجدان هشام .. وقال بصدق :

ـ أنا لا أفهمك .. ماذا تريد أن تقول ؟

ضم شفتيه بحسرة مكلومة .. ثم ردد وهو فى تأهب للانصراف:

ـ لم يعد مهمًا أن تفهم .. ولن يُفيد فى شئ حتى لو فهمت.

واستدار فى خطوات منكسرة فى طريقة إلى الخارج ، وبلا إرادة همس هشام بصوت منخفض قائلاً :

ـ صفوت !

التفت إليه بنظرة استقر فى مقلتيها شقاء كل الدنيا. فاستطرد أخوه متسائلاً :

ـ إلى أين ستذهب ؟!

أشاح بوجهه بعد لحظة صمت .. وكأنه لم يجد ما يخبره به. وواصل انصرافه.

وكان هشام يبحث عن وسيلة لاستبقائه أكبر وقت ممكن .. فأسرع خلفه وقال على استحياء :

ـ فريال لم تتزوج حتى الآن .. ولكنها انتقلت مع جدتها إلى مسكن آخر.

أجابه وكأنه يحدث نفسه :

- بالتأكيد لم تكن تنتظرنى .. و .. .

انصرف بعد أن أغلق الباب من خلفه .

3

إلى أين ؟

خطواته بلا طريق .. لم يعد قادرًا على رؤية أى شىء ، كأنه يسير وحيدًا فوق رمال الصحراء الموحشة .. لا سيارات ولا مارة .. لا أبنية ولا ضوضاء .. لا شىء سوى أعماقه التى تئن بذكريات ماضيه.

ليال وسنوات السجن المظلمة .. نذالة الكفيل التى دمرت أسرته وخداع أحد المديرين الذين يعملون فى شركات الرجل عندما حضر إليه قبل ترحيله وأعطاه ألف دينار ،، تخيل فى لحظتها أنه كرم حاتمى

من الكفيل الذى قرر أن يمنح مبلغًا إضافيًا ـ

إلى أين ؟

وصورة جسد أمه الراقد بلا حول فوق فراشها .. وطبقات الشحم التى تراكمت فوق أصابع أخيه .. ومصير أخته التى زفت إلى مأساتها طواعية .. و .. أبوه الذى التف بكفن الذل والقهر فى قبره.

اهتزت قدماه من شدة الإرهاق .. حاول أن يتماسك فلم يجد غير الفراغ لكى يتكأ عليه .. أوقف سيارة أجره مرة ثانية واتجه بها إلى أحد الفنادق فى وسط المدينة .. لم يصدق نفسه إنه يرقد فوق فراش الغرفة التى استأجرها .. ظن إنه لن يستيقظ إلا بعد يومين .. أو بعد عام .. ولكنه لم ينم .. فشلت كل محاولاته لكى يستدعى النوم.. حتى الإرهاق عانده .. الفجر فى عينيه بدا أكثر قتامة من ظلمة الليل.. لا أمل فى الصباح.

حاول أن يغمض جفنيه قهرًا ، تقلب فوق الفراش بل تلوى وكأنه

يعانى من شدة الألم.

ساعات مرت عليه كأنها خارج مسيرة الزمن .. نظر إلى ملامحه فى المرآة الكآبة أصابته بالشيخوخة المبكرة. هالات السواد حاصرت عينيه وكأنها تحاصر نظراته إلى أى شىء.

اقتربت عقارب الساعة من الثامنة صباحًا .. تحدث إلى موظف الاستعلامات وطلب منه الاتصال برقم محمول وأخبره به.

شعر وكأنه أفاق من غيبوبة طويلة عندما سمع صوتها .. ردد فى هذيان.

ـ فريال .. أنت فريال .. أنا صفوت.

هى أيضًا هزتها المفاجأة .. أخرستها الصدمة لعدة لحظات .. تساءلت هامسة ومرتابة:

ـ أنت صفوت حلمى .. مستحيل !!

ولكن المستحيل تحول إلى واقع .. وحددت له موعدًا فى شيراتون هليوبوليس فهو أقرب مكان لمنطقة سكنها الجديد.

تمنى لو استطاع أن يغتال السويعات التى تفصله عن موعد التاسعة مساءً. تحايل على قلق الانتظار بأن ابتاع بعض الملابس الجديدة لنفسه.

إحساسه بالتبلد حال دونه وأحلام الصبا الوردية .. فشل فى أن يجتر ذكريات الحب البرىء.

لم يعد يأمل فى شىء .. كل ما يرغبه هو أن يتخلص من كابوس أسراره الذى قبره فى صدره ولم يستطيع أن يبوح به لأحد ولكن فريال الأمر معها قد يكون مختلفاً.

كان لقاءً على غير توقعاتها .. فاترًا كالشريان الذى تحتبس عنه الدماء.

بادرته وكأن الأمر لا يعنيها :

ـ متى وصلت من السفر يا صفوت؟

قال باقتضاب :

ـ بالأمس.

قالت بلا اكتراث :

ـ لم تتغير كثيرًا .. فصورتك كما هى منذ رأيتك آخر مرة منذ سبع سنوات.

لم يعلق .. واكتفى بابتسامة باهتة فوق شفتيه .. حاول أن يسترجع بقايا ملامحها السابقة بعد أن تبدل كل شىء فيها .. الجدائل السوداء التى اشتهرت بها تحولت إلى خصلات كثيفة صفراء أحاطت بعنقها واختفت البشرة البيضاء تحت سطوة المساحيق الغزيرة .. ورحلت نظرة الحياء من مقلتيها .. وسطعت مظاهر الثراء على ملابسها وعطرها .. و .. .

واسترسلت مرة ثانية متسائلة بكلمات وكأنها تطلق عليه الرصاص.

- هل تزوجت .. هل لديك أبناء .. هل أتت معك .. هل ..... .

قاطعها ببرود قائلاً :

- لم أتزوج .. وعلمت أنك أيضًا لم تتزوجى.

أجابت بسخرية :

- ليس عندى وقت لهذا المشروع الفاشل.

- ولكنك تغيرتِ كثيرًا.

أجابت بسرعة وتلقائية :

- وأنا سعيدة بهذا التغيير.

- وكيف حالك .. وحال جدتك !!

حاولت أن تبدو متأثرة وهى تجيب :

ـ جدتى توفيت منذ ثلاثة سنوات .. فى الحقيقة تركت فراغًا كبيرًا عندى.

وكأنها تقرأ أفكاره بادرته بحسم :

ـ أحكِ ما هى أخبارك .. كلى آذان مصغية لك.

وحكى كل شىء.

لم يطرأ على وجهها أى تعبير ، ولم تحاول أن تقاطعه ، تركته يسترسل بحرية وصدق إلى أن انتهى من قصته ، وصمت يراقب رد فعلها الذى كان على غير ما توقع تمامًا .. حيث تململت قليلاً قبل أن تقول بلا مبالاة :

ـ ما حدث لك شىء طبيعى !!

ردد وراءها كالببغاء والدهشة تسيطر على نظرته :

ـ شىء طبيعى .. أهذا كل ما عندك لتقوليه !!

تأملته بنظرة حذرة .. ثم همست قائلة :

ـ أخشى ألا يرضيك رأيى.

لاحقها بشغف قائلاً :

ـ أنت الوحيدة التى تعلمين الآن حقيقة قصتى .. ويهمنى أن أسمع ما تقولين ، و .. قالت ما لم يكن يتوقعه أو يتمناه.

فاجأته برأيها فيه أنه إنسان فاشل يحاول أن يعلق فشله على شماعة الآخرين .. وبأنه طماع أراد أن يختصر سنوات كفاحه من خلال مقايضة تصورها فى صالحه .. وبأنه أنانى لم يفكر إلا فى نفسه.. وبأنه ضعيف وساذج حاول أن يدعى صورة البطولة وسمو التضحية وهو فى الحقيقة كان بتصرفه كالإعصار المدمر الذى يقتلع الأحلام والآمال بلا هوادة.

وعادت تتساءل بغضب مرددة :

ـ وأنا .. ألم يراود خاطرك لحظة ، ماذا سيكون مصيرى بعد غيابك؟!

و .. انطلقت الكلمات من بين شفتيها وكأنها ألسنة من النيران تفوح منها رائحة رماد الخراب والدمار.

أخبرته كيف غاب عن لياليها القمر وهى تئن من قسوة الانتظار.. وكيف كانت تمضى الأشهر وهى تحمل معها بقايا أحلامها وتخلف وراءها أحاسيس الرعب من المستقبل الغامض .. وأخبرته أيضًا كيف تعلمت من موقفه تجاهها ، وقررت أن تأخذ المقابل مقدمًا.. وأخذته ممن يملكون العصا السحرية التى تحقق طموحات مثيلاتها من الفتيات التائهات فى نهر الحب المتخاذل .. وكيف انتقلت من عالم إلى آخر لا خوف فيه من الجوع ولا قلق من العجز. وبأنها اقتربت أكثر من حقيقة الواقع بعدما عملت كمضيفة بملهى ليلى فى أحد الفنادق الكبرى .. واستطاعت أن تفرق بين الحقيقة والحلم أو بين الواقع والوهم.

ثم فاجأته وكأنها تنقض عليه لتفتك به قائلة بتحدٍ :

ـ وحتى ولو عدت بالمال الوفير .. لقد فات الأوان .. هل سيمكنك إعادة الحياة لأبيك بعد أن مات مقهوراً ؟ هل ستفيق أمك من غيبوبة الشلل والحسرة ؟ هل سيصبح أخوك مهندساً بعدما اعتاد الآخرون أن ينادوه بالأسطى هشام الميكانيكى ؟ هل ستعيد لأختك نضارة شبابها بعد أن أنجبت للرجل ثلاثة أبناء لتضيفهم إلى الأربعة أبنائه حتى باتت وكأنها فى السبعين من عمرها وليست فى الخامسة والعشرين ؟ هل يمكنك إعادة كل شىء إلى ما كان قبل رحيلك ؟!!

ازدرد ريقه وكأنه يبتلع ظهر قنفذ وهمس بانكسار وذهول :

ـ لقد ضحيت بنفسى من أجل الآخرين .. فيكون جزائى هذه الصورة البشعة !!

أجابت بجرأة وحسم :

ـ أنت لم تضحى بنفسك .. بل قامرت بها على أمل أن تحصل على المزيد من كل شىء ، من المال والبطولة أو من بريق الشهامة والرجولة .. لكن .. للأسف كنت تجهل أو تعمدت أن تتجاهل بأن المقامرة لها وجهان أحدهما خاسر والآخر غادر.

حاول أن يسترد جزءاً من كبريائه .. فقاطعها متسائلاً :

ـ وأنت .. ماذا عنك .. وكيف أصبحت ؟

أجابت بنبرة ساخرة :

ـ أنا وأنت متشابهان .. كلانا اختار نفس الطريق .. ولكن النهايات اختلفت.

وقبل أن يبادرها بسؤال آخر .. نهضت بلا مقدمات ورددت بلهفة :

ـ الساعة اقتربت من منتصف الليل وقد حان موعد عملى بالفندق.

و.. مدت يدها إليه لتنهضه من مكانه .. واستطردت :

ـ دعنى أوصلك إلى مكانك بسيارتى.

حدد لها مكان الفندق الذى يقيم فيه ، وجلس بجوارها فى السيارة دون أن يحرك شفتيه بكلمة واحدة .. وكأن الصمت قد فرض سطوته عليهما ، وكبَّل إرادتهما فى الحديث.

وقبل اقترابه من الفندق بقليل .. تمتم بحسرة دفينة :

ـ يا خسارة .. كنتِ آخر أمل لى بعد كل ما عانيته فى حياتى.

التفتت إليه وقالت بصدق شديد :

ـ صدقنى يا صفوت صعب جدًا ، بل من المستحيل أن نعيد ما كان بيننا فى الماضى .. حتى لو حاولنا .. فهناك أمور لا يمكن التصدى لها ولو بأموال الدنيا كلها مثل جبروت الزمن .. و .. لحظة الموت.

و .. توقفت بسيارتها أمام الفندق وقبل أن يهبط منها بادرته قائله ، بود :

ـ هل سأراك مرة ثانية ؟!

تفحص ملامحها قبل أن يقول :

ـ إذا كنا متشابهين كما قلتِ .. فكلانا سيكون فى حاجة للآخر.. وبالتأكيد سأتصل بك قريبًا.

وقبل أن يستدير ، انطلقت بسيارتها دون أن تعقب على كلماته.

وما أن صعد إلى غرفته حتى أسرع إلى شرفتها وراح يملأ صدره من نسمات الليل وكأن الهواء غير الهواء .. أدار رأسه فى كل اتجاه يبحث عن لا شىء .. يهرب إلى الفضاء الفسيح فى الأفق ، ثم يعود يتسلل بنظرة إلى الطريق بلا هدف.

حاول أن يسترجع حديث فريال فلم يفلح .. فتش فى أعماقه عن الأحداث القريبة فلم يجد .. شعر وكأنه كيان أجوف لا حياة فيه.. لا ماضى ولا حاضر ولا أمل فى شروق الغد.

قرر أن يغادر الشرفة ولكنه فشل أيضًا عندما تسمرت نظرته تجاه امرأة عجوز رآها تقف بجوار صندوق القمامة الحديدى وهى تمد يدها المرتعشة بداخله وتلتقط بعض بقايا الطعام وتدسها فى فمها بنهم غريب.

شعر بجسده كله يكاد أن ينفجر ويتحول إلى أشلاء صغيرة من قسوة ما يراه .. واختلطت الرغبات بداخله ولم يعد يدرى ماذا يريد .. يصرخ أم يبكى .. يتقيأ أم ينتحر .. يناديها أم يلعنها .. يلقى إليها بنقود أم يلقى بنفسه من الشرفة ليتخلص من هذا الاضطراب.

وبالرغم من كل تلك الهواجس التى هاجمته .. لم يفعل شيئًا.

فقط استدار إلى الداخل .. وألقى بجسده المرهق فوق الفراش وقاوم إرادته المخدرة للحظات .. ثم همس إلى نفسه مرددًا:

ـ ألهذا يقولون لا أحد سيموت جوعًا !!

وأغلق جفنيه قهرًا وغاب فى غيبوبة النوم.

4

ما أبشع أن يشعر الإنسان بأن وجدانه مهجور.

فمناطق الخراب لا يطأها إلا الأفاعى والزواحف السامة ، والكهوف المظلمة هى التى تعشعش فيها الخفافيش ولا يسمع حولها غير عواء الذئاب ونعيق البوم .. وكما أن الطيور لا تأمن الأفرع الجرداء فالقلوب المكلومة أيضًا لا تنبض بالمشاعر الإنسانية.

هكذا شعر صفوت حلمى بكيانه مجردًا من كل الأحاسيس والمشاعر ، مجرد جسد يتحرك ببلادة ، وتحولت أنفاسه فى رئتيه وكأنها رياح مسمومة تصفر فى فراغ صدره .. فرض القهر سيطرته

عليه وتملك منه الإحساس بالاضطهاد والظلم واليأس.

اضطهاد الزمن .. وظلم الآخرين .. واليأس من الغد.

أصبح ينصرف من الفندق كل صباح ولا يعود إلا بعد أن تفقد قدماه القدرة على الخطا .. كان يهيم فوق الطرقات شاردًا باحثًا عن أى شىء يسكنه فى أعماقه ليتخلص من وحدته .. الناس من حوله شياطين متخفون فى صورة آدمية ، والأصوات فى أذنيه كزمجرة الرعد العنيف. لا شىء فى فكره يدعو للأمل .. النجوم فى السماء ما هى إلا عيون متربصة كالقناصين فى انتظار لحظة اغتياله .. والهواء فى صدره تحول إلى دخان حريق لضمائر الآخرين.

أصبح كيانًا بلا وجدان .. وجسدًا بلا إنسان.

وفى لحظة راودته فكرة لا يعرف مصدرها. قرر على أثرها أن يذهب إلى حيث يعيش رفيق رحلة الطائرة.

وفى دمياط لم يجد أدنى صعوبة للوصول إلى العنوان الذى يقصده .. فالعائلة مشهورة وأراضيهم وأملاكهم أكثر شهرة.

كان لقاء على غير المتوقع .. حيث رحب به ثابت وكأنه صديق عمر الطفولة .. رآه فى صورة مختلفة تمامًا عما كان عليها وهو جالس بجواره فى الطائرة .. حيث ازداد ضخامة وهو يرتدى الجلباب والعباءة ، واختفت قشعريرة الخوف لتستقر فى عيون الأجراء عنده وهو يصيح آمرًا بإقامة الأفراح والليالى الملاح من أجل صديقه .. خطواته تدك الأرض فى خيلاء وزهو الأثرياء. وربما الشىء الذى ظل على حاله هو ملامحه الطفولية المرحة.

وفى داخل الفيلا أو القصر كما يحلو له أن يسميه .. بادره بود صادق:

ـ أقسم لك يا صفوت بك أنك كنت فى خاطرى دائمًا.

أومأ برأسه له مع ابتسامه لا معنى لها .. فاستطرد قائلاً :

ـ كيف حالك وحال الأسرة .. إنشاء الله يكونوا جميعًا بخير.

ازداد صفوت تعجبًا من أسلوبه الودود .. وأجابه بحرص :

ـ الحمد لله الجميع بخير.

وبشهامة طبيعية ، عاد ثابت يقول :

ـ ليتك يا رجل كنت أحضرتهم معك ليستمتعوا بهواء الريف البديع.

أجاب بلا تردد :

ـ الأهل فى أسيوط .. وأنا حضرت لكى أراك حسب وعدى لك.

أسرع قائلاً :

ـ لقد جئت فى وقتك .. ويعلم الله كم كنت محتاجًا لصديق مثلك استنير برأيه.

رمقه صفوت بنظرة مندهشة وكأنه يتساءل عن أمر هذا الرجل الأبله الذى حول لقاء الطائرة العابر إلى صداقة وأخوة وثقة تفوق الحد.

ولم يكن ثابت مدعيًا أو مجاملاً ، فهو بحق كان فى حاجة إلى أحد يبثه همومه حتى ولو كان هذا الشخص هو ذلك الغريب القادم لزيارته. وبدأ يسرد عليه مشاكله التى واجهها منذ لحظة وصوله إلى

بلدته .. وكيف تحركت أطماع العائلة بعد أن كان الجد يسيطر عليها ولكن بعد مماته بدأت فقاقيع الغليان تطفو على سطح المشاحنات والمناوشات .. وراح يؤكد لـه أنهم يدعون بالباطل بحقوق ليست لها أساس. وبأنه الوريث الوحيد بعد والدته. ولكونه وحيدًا تكاتف ضده الجميع على أمل أن يرهبوه وأن يضطروه للاستسلام لرغباتهم ... واستكمل حديثه بنبرة حزينة قائلاً :

ـ وأحمد الله إننى وصلت فى الوقت المناسب .. فكيف كانت أمى ستتصدى لهم وهى فى هذا العمر كما أنها شبه كفيفة بعد إصابتها بمرض لعين فى عينيها.

وبغضب مشوب بالتعاطف عليه .. قال صفوت :

ـ أغلب الناس ماتت ضمائرهم .. وأصبحوا يستحلوا الحرام بلا هوادة.

وكعادة ثابت بتصرفاته غير المتوقعة نهض فجأة مرددًا :

ـ تعال أعرفك على أمى .. فلقد حدثتها عنك بعد عودتى.

تحرك صفوت خلفه بلا تردد أو اكتراث .. وانتقل من بهو إلى آخر ومن درجات سلم إلى أكثر من ممر .. وفجأة ارتفع صوت ثابت صائحًا :

ـ أنا قادم يا أمى.

ثم التفت نحوه مسترسلا بابتسامة عريضة :

ـ يجب أن أصيح هكذا قبل دخولى عليها لكى تتأكد من حقيقتى فكثيرًا ما تظننى أحد الخدم نتيجة لضعف بصرها .. وأنا أرفض هذا.

وراح يقهقه بطيبة وهو يواصل السير.

وقبل أن يدلفا إلى غرفتها ترامى إلى مسامعهما صوتها وهى تردد:

ـ أنا هنا يا ثابت تعال.

ـ معى ضيف يا أمى .. صفوت بيه.

ـ يا مرحب يا ابنى .. اتفضل.

أسرع ثابت فى اتجاه والدته ليقبل يديها حيث كانت تجلس فوق بساط عريض من الصوف وأمامها موقد صغير فوقه براد الشاى. بينما تسمر صفوت فى مكانه بعد أن جذب انتباهه وجود فتاة تجلس على مقعد قريب من الأم وقد تصورها هى التى تضئ المكان من شدة انبهاره بجمالها الذى لم يره فى حياته قط.

ولكن ثابت يوقظه من هذا السحر .. وبادرة قائلاً بترحاب :

ـ تقدم يا صفوت بك .. هذه هى أمى الغالية.

تحرك صفوت لمصافحة الأم ولكنه فشل فى أن يحرك نظرته بعيدًا عن الفتاة.

وتدخل ثابت مرة أخرى مشيرًا إلى الفتاة .. مرددًا :

ـ وهذه سماح ابنة خالتى .. هى التى كانت ترعى أمى فى غيابى ..و..

اقترب من أذنه هامسًا :

ـ مسكينة هى يتيمة الأبوين .. وتعيش معنا منذ طفولتها.

اقترب منها صفوت كالفهد الذى ينقض على فريسته وما كاد يتناول كفها لمصافحتها حتى تمنى لو التصقا إلى الأبد .. وهمس إلى نفسه بحسرة :

.. كيف استطاع أن يرحل هذا الغبى ويترك كل هذا الجمال .. و ..

عاد متراجعًا بعده خطوات مدعيًا التأدب.

بينما لاحقه ثابت قائلاً بفرحة:

ـ هيا الآن لأريك غرفتك يا صديقى العزيز.

فسار خلفه مرة أخرى وهو نادم لتركه المكان.

وبعد أن أوصله إلى الغرفة .. عاد قائلاً :

ـ سأتركك ساعة لأنتهى من بعض أعمالى ثم أعود إليك.

وانصرف وهو يردد بصدق :

ـ البيت بيتك يا صديقى.

اقترب صفوت من النافذة العريضة .. بهرته المساحات الخضراء التى لم يستطع أن يحددها بنظرته .. الرؤية رائعة .. الأشجار مورقة تكاد تكتظ بالثمار ، ومسطحات الزهور بأشكالها وألوانها الجميلة زادت من بهجة المكان .. وفى الجانب الآخر من الأراضى ارتفعت قليلاً ربوة أحيطت بأسوار خشبية تزاحمت فوقها أعداد لا حصر لها من الأبقار وهى ترعى بحرية وأمان .. وعلى مقربة ظهرت حظائر الدواجن الحديثة التى يفصل بينها وبين الربوة إسطبل عريض تمرح فيه خيول عربية أصيلة أضفت على المكان ثراءً.

تسلل إلى ذهنه خاطر طفح من أعماقه إلى رأسه أفسد عليه متعة النظر .. ولكنه استجاب للخاطر راضيًا،

وهمس إلى نفسه .. شامتًا وحاسدًا :

.. يبدو أننا جميعًا أدعياء ومزيفون.

هذا البدين كيف هانت عليه أمه وتركها راحلاً لعدة سنوات. بالرغم من كل هذا الثراء .. لم يكن فى حاجة للغربة .. ولكنها

الأنانية التى أخفاها وراء براءة ملامحه. كان يعلم أن كل هذا الثراء سيصبح ملكه يومًا. فخلع رداء الانتماء من فوق منكبيه ورحل وراء رغبة متواضعة على أمل أن يصبح بحارًا. قايض بحنان أمه وبحاجتها إليه مقابل أن ينتقل من شاطئ إلى آخر من خلال أعمال حقيرة مثله. تذكرها فقط عندما أطمأن بأن الثروة أصبحت ملكه بعد وفاة جده البخيل.

لماذا أنا فقط الملام .. أنا ضحيت من أجل الآخرين .. وأمثاله يضحون بأغلى ما لديهم. أنا أصبحت كيانًا أجرب وهم يرتفعون فوق العناق. أنا ازددت فقرًا وأمثاله يزداد ثراءً.

أى عدالة هذه ؟!!

أين الحق من الباطل ؟

و .. فريال .. عذراء الحانات.

لم تستحى وهى تكيل لى الاتهامات والمواعظ.

هى أيضًا تجردت من جذورها كما تجردت من ملابسها.

هى أيضًا تعللت بذنبى الذى لم أقترفه .. أفصحت عن رغبتها المكبوتة فى البحث عن الثراء السريع حتى ولو تحولت إلى صائدة رجال.

أى عدالة هذه ؟!

أرسل نظرته إلى الأفق ، وكأنه يُشهد الكون كله على أناته وأحزانه.

و .. عاد يسترسل مع ذاته :

.. حتى هشام أخى تستر وراء غربتى أو موتى وارتدى وشاح البطولة الزائفة ليهرب من فشله .. لقد كان بإمكانه أن يتحول من كلية إلى أخرى لو أراد .. ولكنه كان يبحث عن مبرر لفشله.. ووجد ضالته فى عجزى .. رفع سيف الفضيلة وراح يشطر به أواصل الانتماء ، لم يفكر إلا فى نفسه .. وما حققه صورة طبيعية لإمكانياته.

يدعونى للرحيل والاختفاء ليظل هو فارس الحب والوفاء.

أى عدالة هذه !!!

وأختى التى راحت تنجب بالثلاثة .. من شدة حزنها على !!

وكأن هذا هو ثوب التضحية الجديد .. بل هى حكمة هذا الزمان.

مسكين يا أبى .. اشتريت الموت بأحزانك.

مسكينة يا أمى .. قهرتك الأيام من خلال أوهامك.

أين الحق من الباطل؟

أين .. و ..

لكنه انتبه على صوت ثابت الذى اقتحم عليه حديث الذكريات .. وهلل مرحبًا :

ـ يا أهلاً بصديقى العزيز. لقد أضأت الدنيا بوجودك عندنا.

التفت إليه بابتسامة بلا تعقيب فلاحقه قائلاً :

ـ ما رأيك لو نتريض قليلاً بين المزارع.

ـ ليس لدى مانع. ولكن .. أخشى الوقت يمضى ويفوتنى قطار أسيوط.

تجمدت ملامح ثابت وهو يردد بجدية :

ـ لا مستحيل .. أنت هنا ضيفى لعدة أيام على الأقل.

حاول أن يستثمر إلحاحه .. وأجابه قائلاً :

ـ كنت أتمنى ذلك .. ولكنى مرتبط بأعمال كثيرة فى بلدتى.

ـ هيا نتنزه قليلاً .. ثم نرى ماذا نفعل بعد ذلك.

و .. فى الطريق بين الحقول بادره بسؤال بشىء من التردد :

ـ لقد علمت عنى كل شىء .. هل تعرف إننى لا أعلم عنك شيئًا سوى اسمك .. يا صفوت بك.

أجابه بهدوء وثقة :

ـ أنا إنسان عادى .. وحيد .. كافحت وذقت مرارة الغربة .. وجمعت ثروة كبيرة من أجل هدف خاص .. وعندما تحقق .. أفكر الآن فى استثمار ما تبقى معى من أموال.

وبجرأة غير معتادة سأله :

ـ أى هدف !؟

حاول أن يبدو مترددًا لبرهة .. ثم أجاب بتواضع :

ـ كانت هناك بعض المشاكل الثأرية بين عائلتى وبعض العائلات الأخرى ، وأحمد الله إننى نجحت فى أن انتهى منها وأرضيت الجميع بأموالى.

وكعادة ردود أفعاله صاح فجأة بنبرة ملؤها الإعجاب وراح يضمه إلى صدره بحميمة صادقة .. وهو يردد :

ـ ما أعظم أخلاقك .. فأنت نوع من الرجال يندر تواجده الآن.

تخلص منه بزهو وقال :

ـ ما قيمة الإنسان بلا مبادئ .. ويكفى حب وتقدير الجميع لى.

أسرع يقول بطيبة تفوح منها رائحة السذاجة :

ـ وأنا أيضًا أشعر وكأنك أخى .. ابن أبى وأمى. ولهذا يهمنى أن

أصارحك ببعض الحقائق التى تخصنى .. وسأترك لك الخيار بعد ذلك.

وبدأ يسرد عليه مواجعه .. بأنه يشعر ويقاسى من مرارة الإحساس بالوحدة ، فهو بلا أصدقاء وبلا أحباء .. خبراته القليلة جعلت منه صورة باهتة أمام الآخرين .. وبأنه تعرض للاغتيال مرتين منذ عودته .. ورسائل الوعيد والتهديد تنهال عليه من كل جانب. لأن أعمامه يصرون على أن لهم حقوقًا فى ميراث والدته. وأخبره كيف أصبح يكره المكان ويخشاه. وبأن نشأته التى عوده عليها جده أفقدته الكثير من الهيبة ، وبالتالى لن يستطيع يومًا أن يستقطب أى علاقات.. حتى الشواطئ التى كان يطوف بها لم يطأ أرضها يومًا .. كان البحر أنيسه والسماء سترته.

ثرثر كثيرًا .. وأفصح أكثر .. ترقرقت الدموع فى عينيه .. وافترش الألم ملامحه .. حاول أن يتماسك ولكنه فشل .. واستسلم لنظرة الانكسار تجاه الأرض التى يقف فوقها مهتزًا .. ثم فاجأه قائلاً بحماس :

ـ أنا فى حاجة إليك .. إلى علاقاتك .. إلى حمايتك لى ولأمى مقابل أى عرض تطلبه .. أريد أن أرى الدنيا بعينيك .. أن أستعير خبراتك فى الحياة. لقد اعترفت لك بضعفى فلا تخذلنى.

تسمر صفوت فى مكانه ولكن عقله وأفكاره كانا يحلقان بعيدًا .. بعيدًا .. باحثًا عن قرار يأخذه بإرادته لا بإرادة هبة الأقدار.

وكان قراره باتفاق الشبيهين .. هو وفريال.

و .. سقط ثابت فى دوامة الضياع .. بهرته حياة الليل فى النايت كلوب .. غاصت فريال فى أعماقه فاحتوت كيانه وهيمنت على وجدانه وسلبته إرادته ، سقط ثابت بإرادته فأصبح لا يتصور الحياة بدون تلك الحورية الفاتنة. ولم تكن فريال فى حاجة لإرشادات صفوت فكانت خبراتها كفيلة بأن تلتهم هذا الساذج من أول نظرة إليه .. اعتمدت على غليان غرائزه المكبوتة داخل جسده فأطلقت عليه رماح مفاتنها لتنفجر أعماقه كالبركان الثائر فتشتت كل شىء بداخله ومن حوله. اتفق الشبيهان .. وأصبح لكل منهما دور يلعبه فى حياة ثابت الذى تحول إلى دمية بين أناملهما.

أصبحت فريال هى الأمل .. هى المعشوقة التى يصعب أن ينالها أحد خاصة ذلك الولهان.

وأصبح صفوت هو المرشد الأمين له .. هو الملاذ الوحيد الذى يشكوه عذابات الحب والعشق.

ولم يتردد ذات ليلة فى أن يبوح إليه قائلاً بصدق :

ـ أنا أعشقها يا صفوت .. أرجوك تطمئن إلى .. فأنا على استعداد أن أفديها بروحى وبكل أموالى.

فيزيده يأسًا ومرارة .. عندما يجيبه قائلاً :

ـ والله يا أخى أنا أتمنى أن تكون فريال من نصيبك .. ولكنها فتاة مثقفة ومتعلمة وترفض أى نوع من الارتباط إلا باقتناع أو حب. كما أنها تعرف قدر جمالها ولا تريد أن تمنحه إلا للرجل الذى يستحقه.

فيذوب فى ولعه .. ويردد متوسلاً :

- أرجوك يا صفوت أنت تعلم أخلاقى .. حاول أن تحدثها عنى كثيرًا.

و .. حدثها عنه كثيرًا .. وكان ذلك الاتفاق المسموم.

هى تأخذ ما تأخذه منه من أموال .. وهو ينصب نفسه بديلاً له فى كل شىء .. احتل مكانته فى إدارة المزارع وتجارتها ، هو صاحب الرأى الأول فى كل شىء .. هو مثال الشرف والأمانة والرجولة فى نظر الأم التى اطمأنت على ابنها لقربه منه ... وفى نظرة سماح التى لم تعتاد على كلمات الإطراء ولم يكن فى مقدورها مقاومة ذلك المقتحم لأنوثتها وبراءتها ، فاستسلمت لمشاعر الحب الدفين فى قلبها واكتفت بمعايشة أحلامها بعيدًا عن عيون الآخرين .. إلا عيناه هو فكان يدرك جيدًا أنه أسقطها هى الأخرى فى شباكه وبأنها فى انتظار اللحظة التى يبوح فيها بحبه الصادق لها.

ولكنه لم يبح بشىء .. وتركها تكتوى بلهيب الحيرة والحرمان ، كالصائد المتمرس وهو على يقين بأن فريسته فى انتظار لحظة اغتيالها بطلقة منه يعرف متى وكيف وأين يطلقها.

بينما كان ثابت غائبًا عن الوعى يتمرغ فى نشوة الحب المستحيل يداعبه الأمل ويدغدع مشاعره ذلك الوهم الغادر.

إلى أن جاءت اللحظة التى كاد أن يخلع قلبه فيها من شدة السعادة ومن روعة المفاجأة ، عندما بادرته فريال وهى تجلس معه فى الشقة التى استأجرها وقالت برقة ودلال مخطط :

ـ كنت أتمنى أن أراك كرجل أعمال وليس كمزارع وصاحب أطيان .. فهيئتك وشخصيتك توحى بأنك رجل أعمال ناجح.

ابتلع ريقه وكأنه يزدرد ماضيه الكئيب الذى يحول بينه وبين رغبتها والتفت نحو صفوت وقال بتردد :

ـ منذ صباى وأنا أحلم بأن أكون رجل أعمال.

لاحقته بنبرة أكثر دفئًا :

ـ اترك لى نفسك .. وأنا أخطط لك كيف تحقق حلمك.

وهنا تدخل صفوت قائلاً :

- لم أكن أعرف انك غالٍ هكذا عند فريال.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة تمناها تحتوى الدنيا من فرط سعادته ثم قال بثقة وزهو شديدين :

- ليس لدى مانع مطلقاً .. خاصة وأن أخى صفوت هو الذى يتولى الآن شئون المزارع وأنا شخصيًا لا أحب هذا المجال.

و .. التقت نظرة الصمت بين الشبيهين.

بينما سكن ثابت مترقبًا ومتوترًا فى انتظار قرارهما الذى سيحدد مصيره كرجل أعمال ، وتعايش مع لحظات غيبوبة الأحلام وهو يتخيل نفسه فى صورته الجديدة.

5

فقد الزمن ملامحه فى هذا الوقت.

لا هو بصباح ولا هو بغروب .. لا مكان للشمس ولا رؤية للقمر.

الطبيعة ثائرة ، غاضبة ، مزمجرة.

السيول تهطل من السماء فى صورة خيوط جليدية .. والرعد يدوى فى الأفق وكأنه يستصرخ الكون ليلعن ذلك العائد مرة ثانية.

تعمد صفوت أن يهبط من السيارة الأجرة ويسير على قدميه فى طريقه إلى منزل عائلته بشبرا .. وكأنه يحاول أن يغتسل بماء

الغفران أو يتخلص من رائحة عفن المؤامرات.

فالعودة هذه المرة مختلفة عن سابقتها ، فهو يحمل معه مبلغًا كبيرًا من أجل مصاريف علاج أمه وجزءًا آخر لهشام أخوه ولم ينس أن يدخل شقيقته فى حساباته.

عاد ليحقق ما لم يستطيع تحقيقه منذ سبع سنوات. كان لديه قناعة بأن المال سوف يمحو الذكريات الأليمة ويعيد إليهم بهجتهم التى ابتلعها غول القهر والحرمان.

صعد درجات السلم ، وبعد عدة طرقات خفيفة على باب الشقة .. فوجئ بأخته سوسن التى ما أن رأته أمامها حتى أطلقت صيحة عالية وارتمت على صدره باكية تارة ومهللة تارة أخرى .. ثم قالت وهى تجذبه إلى الداخل :

- كيف لم تأت لزيارتى عندما عدت فى المرة السابقة.

جلس يستريح وملابسه مبتلة بعد المشوار الطويل الذى قطعه وهو يسير على قدميه .. ثم أجاب بفتور :

ـ ترددت لأننى لم التق بزوجك من قبل .. و .. .

تلفت حوله ثم عاد متسائلاً :

ـ أين أطفالك .. لقد علمت من هشام أنك أنجبت ثلاثة أبناء .. وهل زوجك معك هنا.

أجابت برضا وهدوء :

ـ أبنائى تركتهم مع زوجى فى البيت .. لقد جئت اليوم لأطمئن على هشام.

ـ وأين هشام ؟

ـ ذهب يستأذن صاحب الورشة وسيعود الآن.

نهض متأهبًا لدخول الغرفة الجانبية .. وقال :

ـ وكيف حال أمى ؟

أجابت بسرعة :

ـ أمى ماتت .. الشهر الماضى.

التفت نحوها مذعورًا .. تحجرت مقلتاه فى نظرة لا حياة فيها. وشعر بأسنانه تتفتت بين فكيه وهو يضغط عليهما بقسوة وكأنه يحول دون انفلات صرخة أعماقه من شفتيه.

حاولت أن تهون عليه هول المفاجأة .. وقالت بصوت منخفض :

– استراحت من عذاب المرض .. البقية فى حياتك.

همس وكأنه يحدث نفسه :

– حياتى !!

و .. استدار بتثاقل متجهًا إلى غرفة والدته وعلى أعتابها تسمرت قدميه لعدة لحظات وكأنه أصيب بشلل مفاجئ ودار بعينيه يحيط أركان الغرفة بنظرته .. استنشق رائحة الموت فى رئتيه المنقبضة وتسلل إلى صدره إحساس بأنه يقف داخل كهف مهجور مظلم ومخيف.

ملاءة الفراش تدلت أطرافها وكأنها غطاء نعش بلا

مودعين .. والستائر استقرت فوق النوافذ أو جدران القبر لتحجب الهواء والضوء .. والحياة.

قال بنبرة متهالكة :

ـ اتركينى وحدى قليلاً.

وما أن أغلق باب الغرفة من الداخل حتى ارتمى على الفراش وكأنه ينتحر من فوق موقع عالى الارتفاع. وسقط على صدره مستسلمًا لبكاء أقرب للعويل :

.. سامحينى يا أمى .. لماذا رحلت قبل أن تودعينى .. كنت انتويت هذه المرة أن أخبرك بالحقيقة .. أنا مظلوم يا أمى .. ظلمتنى الأقدار والناس وظلمت نفسى .. سامحينى يا أمى .. لن تتركيننى .. فأنا فى حاجة إلى حضنك ، لدفئك ولأمانك وحنانك .. لن تتركيننى وقد ابتليت بصحبة الحقد والعذاب والغدر.

وراح يدفن رأسه فى وسادة الفراش وهو يواصل بكاءه وهذيان كلماته التى مزقت حروفها حنجرته :

.. سامحينى يا أمى. أنا برئ .. لقد جئتك بالمال من أجل علاجك. من أين لك كل هذه القسوة .. كيف ترحلين وأنا فى حاجة إليك !!

كيف تموتين قبل أن تنقذينى من نفسى .. قلبى يا أمى أصبح يوجعنى ويؤلمنى وهو بين أضلعى. الظلم قهرنى والعذاب أذلنى .. و .. الشر ملكنى.

رفع رأسه قليلاً وكأنه يحدثها من العالم الآخر .. وردد :

.. لم يعد يفيد .. لم يعد يفيد أى شىء بعدك يا أمى.

تحرك إلى خارج الغرفة ، بعد أن كفكف مدامعه .. وجد سوسن تنتظره وسط الردهة وكأنها كانت تتنصت على حديثه مع الراحلة.

وبهدوء شديد ومثير دس يده فى سترته وأخرج ظرفاً كبيراً ممتلئًا بالمبلغ الذى أتى به .. ومده إليها قائلاً بلا اكتراث :

ـ اقتسمى هذا بينك وبين أخيك.

واستدار فى طريقه للانصراف .. ولكنها استوقفته بلهفة :

ـ ألن تنتظر قليلاً ؟!

التفت إليها بنظرة كلها حسرة وألم .. ثم قال :

ـ انتظر من ؟! اللذان ذهبا لن يعودا.

و .. انصرف مسرعًا.

مرة أخرى عاد يسير وحيدًا على الطريق .. طريق غربة الوجدان.

كانت السيول قد انسحبت ثانية إلى السماء ، لم يبق منها سوى رذاذ خفيف تخفى وراء قطرات دمعه .. لا شىء يراه حوله وأمامه .. فقط صدى أنات أعماقه الحائرة .. تساءل بحسرة :

.. ما هذا العداء الذى بينى وبين الدنيا ، وكأن بيننا ثأرًا لا سبيل لنهايته إلا بدمار أحدنا. لماذا أنا وكأنى خصمها الوحيد .. صراع غير عادل ، صراع غادر لابد وأن الموت أكثر رحمة منها. أكثر صدقًا وأكثر أمانًا لا رياء ولا خداع ولا صراع فى

مستقره. الموت أكثر سلامًا وعدلاً ما أشقى رحلتك يا دنيا .. ولكنى سأقبل التحدى.

وبدأ صفوت حلمى ممارسة تحديه للدنيا بطريقته التى اعتنقها أو التى أقنعه بها شيطانه الودود لأعماقه .. أصبح يطعم حقده ويشبعه من تعاسة ودمار كل من ترضى عنه دنياه .. بات كالجرثومة التى تنخر فى الخلايا السليمة .. استعان بأصحاب النفوس المريضة وجعلهم أداة طيعة بين أصابعه يحركها كما يريد فى أى اتجاه. استغل أموال ثابت فى تحقيق أغراضه الانتقامية. لم يترك زهرة فى طريقة إلا وقطفها ولا ابتسامة بريئة فوق الشفاه إلا وأماتها .. حوّل "النايت كلوب" التى تعمل فيه فريال إلى مركز لاصطياد ضحاياه.

باع الأحلام للطامعين ، وهتك أعراض الساذجين ، ومارس البلطجة المستترة متخفيًا وراء ستار الشرف والشهامة.

لا شىء كان يزعجه سوى الإحساس الغريب الذى كان يفرض نفسه على وجدانه كلما التقى بسماح فى المزرعة .. إحساس أرهق

فهمه وأقلق حيرته .. كانت كالنور الوضاء الذى يضغى على ظلمة نفسه بدون إرادته. كالعبير الذى يمتص عفونة أنفاسه .. احتار معها .. كيف تتساقط محاولاته الشيطانية أمام براءتها ، كيف تذبل غرائزه فى مواجهة طهارتها. كيف يتعملق أمام الليل والمقامرين والمتأسدين ثم يقف كالحمل الوديع أمامها.

أفزعه إحساسه من أنه تحول من صياد إلى فريسة عندما حاورها فى شئون حياتها. فسقط فى شباك براءة أمانيها وسمو كلماتها ومعانيها. قيدته بخيوط حريرية من الصفاء وقناعة النفس. استفزه قدر سذاجتها وهى تروى له قصتها منذ نعومة أظافرها ، وكيف عوضها القدر إحساسها باليتم بعد وفاة والديها فى حادث حريق بأن وهبها خالتها الحنونة لترعاها وجدها الحكيم ليحميها وابن خالتها ثابت ليآخيها. أوغر الغيظ قلبه من هذه البلهاء التى تمتلك نصف الميراث تقريبًا وبالرغم من ذلك ارتضت بأن تضحى بدراساتها وبشبابها وصباها من أجل أن ترعى خالتها العجوز الكفيفة.. أى جنون هذا الذى يدفع بفتاة تملك كل هذا الثراء والجمال وترفض أن تقايض به سعادتها وتحقيق أمانيها وأحلامها.

ولكنه لم ييأس .. وقرر أن يقتحمها بكل ما لديه من خبرات واستغل تكرار انفرادهما فى غيبة المغيب ثابت .. وتسلل خلفها زاحفاً كالأفعى وهى ترعى بعض الأزهار فى الحديقة .. وفاجأها بقوله :

ـ أنتِ تثيرين غيرة الزهور لأنك تقفين وسطهم بجمالك.

التفتت نحوه تسبقها ابتسامتها الملائكية .. وأجابت :

ـ الأزهار لا تعرف الغيرة .. لأن رحيقها خُلق للصفاء والنقاء.

تساءل بنبرة هادئة :

ـ هل أنتِ دائمًا هكذا ؟

نظرت إليه باندهاش يعبر عن عدم فهمها لمقصده .. فاستطرد قائلاً :

ـ أقصد هل أنتِ دائمًا هكذا متصالحة مع نفسك ومتسامحة فى كل شىء ؟!

بدت ابتسامتها رائعة وهى تجيب :

ـ كيف لا أتصالح مع نفسى وكل شىء من حولى صادق وجميل ..
الطبيعة ساحرة والناس من حولى يبادلوننى المشاعر الطيبة ..
ودعوات خالتى .. و ..

قاطعها بخبرة :

ـ والحب !! .. أين مكانه فى قلبك ؟

أربكتها جرأته .. وحاولت أن تجيب ولكنها صمتت.

انتابه إحساس بالثقة بأنه قد أمسك بطرف شباك فريسته وقال وكأنه يغلق أمامها كل منافذ الهروب :

ـ هل تجاوزت حدودى بهذا التساؤل ؟

لم تستطيع أن تتخلص من حمرة الخجل التى سادت وجنتيها .. وهمهمت :

ـ لا أبدًا .. ولكنى لم أعش مثل هذه التجربة من قبل.

ـ وماذا عن ثابت ؟

أسرعت قائلة بصدق :

ـ ثابت مثل أخى تمامًا .. لقد عشنا طفولتنا وصبانا معًا.

ردد بدهاء مقصود :

ـ الآن فقط .. أدركت سبب تصرفاته.

ـ أى تصرفات ؟

تقمص البراءة وهو يقول :

ـ أخشى أن أبوح بسره فتفسد العلاقة بينى وبينه.

أخذها الفضول .. فقالت :

ـ يكفى أن تثق بى.

وكأنه يتحين الفرصة ، فأسرع قائلاً :

ـ إنه يعيش قصة حب ملتهبة مع فتاة تدعى فريال .. كما أنه دائم التوتر بسبب الميراث ومشاكله.

وكالصاعقة التى طوت كيانه بسؤالها المباغت قائلة :

ـ وأنت !!

تمتم بلا تفكير مرتب وردد :

ـ أنا.

أومأت برأسها .. وعادت تؤكد ما تقصد :

ـ نعم أنت .. ماذا عنك !!

تنهد بعمق ودار برأسه ينظر إلى كل شىء فى الأفق والى الأرض وما فوقها .. ثم عاد إليها بنظرة مستسلمة .. وقال بنبرة حزينة :

ـ أنا افترستنى الوحدة .. وعانيت من خداع الآخرين .. وأنهكنى ظلم الليالى .. ودمرت الغربة وجدانى .. فعشت وحيداً بلا أنيس أو صديق ، تعذبت كثيرًا ولم يشعر بى أحد .. ضحيت بكل شىء من أجل أن أرى ابتسامة الآخرين من حولى فلم أجد سوى أنياب تنهش فى كيانى.

أغرو رقت عيناها من شدة التأثر .. ثم قالت بطيبة :

ـ كل هذا الحزن فى صدرك .. لماذا .. وكيف احتملته ؟!

أجاب بوداعة :

ــ لأنى كنت مثلك .. تصورت أن كل الناس ملائكة .. فدفعت الثمن من مالى وشبابى .. ولم أصادف الحب يومًا.

قالت باقتناع :

ــ الحياة مليئة بالصدق والحب والخير .. والشر بلا قدمين ولا يسعى إلينا ولكن الأشرار هم الذين يسعون إليه. ولهذا فأنا تصورى ليس مخطئًا.

وبلا تردد فاجأها قائلاً :

ـ وماذا عن أقاربك ؟!

همست بتعجب :

ـ أقاربى ! ماذا تقصد ؟!

فى هذه اللحظة انطلق منفجرًا كالبركان الثائر ، وراح يثرثر بكلمات ملؤها التشاؤم والغضب .. يلعن الليالى والأقدار .. ويعدد مساوئ الآخرين وبأن الظلم هو سيد الواقع ، والخداع هو مسلك الجميع ، والهواء فاسد والقلوب باتت كالمقابر ، والأبرياء ضعفاء ، و ..

التفت نحوها قائلاً بحنق :

ـ ها أنتِ أمامى خير مثال للمقهورين .. حقك فى ميراثك الكبير لا أحد يتحدث عنه .. جمالك سجين بين جدران لا حياة فيها .. شبابك يتسرب مع ليال السهر لرعاية الآخرين .. ها أنتِ أمامى تعمقين فى وجدانى حقيقة الواقع الظالم الذى نعيش فيه .. و ..

واضطر لأن يصمت عندما لاحظ نظرة الوجوم التى تطل إليه من عينيها واستمرت لحظات الصمت التى تخيلها تحفر تحت قدميه لتسقطه فى باطن الأرض أو داخل أعماقه المظلمة ، عندما فوجئ بها تقول بهدوء :

ـ يبدو أنك قاسيت كثيرًا فى حياتك .. ولهذا فأنت لا ترى الحقيقة بوضوح.

تأملها بدقة .. وقال بانكسار :

ـ يبدو هذا.

وتركها بلا مقدمات .. منصرفاً دون أن يلتفت إليها.

بينما سكنت هى تتابعه حتى غاب عن نظرها وراء الأشجار الكثيفة.

أسرع إلى غرفته وأغلق بابها من خلفه وكأنه يهرب من شئ ما أفزعه.

و .. مرة ثانية يتأكد صفوت حلمى بأن الإحساس الذى يسيطر على وجدانه كلما رآها ليس وهماً.

إحساس غريب لم يعتد عليه منذ عودته من الغربة وكأنه لا يصدق ما يراه وما يشعر به.

راح يتساءل فى حيرة.

.. كيف استطاعت سماح ببراءتها أن تواجه كل هذا الشر الذى فى الدنيا بل وتنتصر عليه؟ .. من أين لها هذه القوة والإرادة.

هل هى أكثر فراسة من الآخرين وأدركت معنى الحياة على حقيقتها.

هل ترى بعيونها ما لا يراه سواها.

.. هل كنت أنا مخطئًا ؟!

ولِمَ لا !!

لمَ لا يكون القدر قد أراد أن يمهد لى طريق التوبة والغفران فجاء بها أمامى لتنتشلنى من ظلمة نفسى !

لما لا يكون ما أشعر به تجاهها هو الحب الحقيقى الذى سيأخذنى إلى طريق الخلاص ، ويعيد لى إنسانيتى وكيانى ويطهر قلبى من نبضاته الشيطانية.

تقلب فوق الفراش يمينًا ويسارًا وكأنه يؤكد حريته لنفسه.

وعاد ينظر إلى أعماقه بعد أن أغلق جفنيه.

.. ما الذى فعلته بثابت كريم .. كيف أقابل إحسانه وشهامته معى بهذه

المؤامرة الدنيئة ، لابد وأن أخلصه من براثن فريال الضائعة.

.. ما الذى فعلته بنفسى ، حتى أصبحت بلا هوية .. لا أدرى إن كنت قوادًا أم لصًا أم حاقدًا.

.. وسماح ما الذى أحاول أن أفعله معها .. هذه الفتاة الملائكية.

لابد وأن أستعيد نفسى .. أعود إلى صفوت حلمى ابن العائلة الكريمة والأب الذى ضحى بكل غال فى سبيلنا.

.. غدًا أعود إلى القاهرة .. سأصارح ثابت بحبى لسماح ، سأطلبها للزواج وأقابل الوفاء بالوفاء .. والحب بالحب.

غدًا سوف تشرق شمسى من جديد لتضىء دنياى وأعماقى.

غدًا سأقبر هذا الماضى اللعين.

و .. حاول أن يفتح جفنيه ولكنه لم يفلح بعد أن تغلب عليه سلطان النوم الهادئ.

6

الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

بدت القاهرة فى عين صفوت حلمى وكأنها عروس من الجنة.. كل ما فيها رائع ، سماؤها مظلة من الحرير الأملس الصافى ونجومها شموع فرح وكأنها شموس متلألئة تسطع بالبهجة والرضا .. أفرع الأشجار تتمايل فى تناغم وديع وهى مستسلمة لنسمات الأمان من حولها.

حتى الطرقات تخيلها جداول تترقرق بالماء العذب والسيارات تسبح فيها كالحوريات الحسناوات.

إحساسه بالأمل كان يشد من أزر خطواته وهو فى طريقه إلى الفندق الذى تعمل فيه فريال ... لا شىء فى فكره غير إصراره على إنقاذ ثابت كريم ، ولا صدى فى أعماقه سوى التطهر من دنس ليالى ماضيه البغيض.

دخل "النايت كلوب" وارتكن إلى أحد الأعمدة وراح يتجول بنظره كالصقر يتفحص وجوه الجالسين باحثًا عن صديقه المغيب.

و .. فى لحظة زلزال مدمر.

شعر وكأنه أصيب بالعمى المؤقت .. وتبدلت الموسيقى الهادئة الى نواح وعويل ، ودقات الطبول باتت كلطم الخدود .. والمصابيح اشتعلت بنيران غادرة ماحقة. ورؤوس الرواد كجماجم القبور. اهتزت قدماه من عنف الصدمة التى هبطت على صدره.

همس بشفتين كادتا أن يسيل منهما الدماء بدلاً من الأحرف.

ـ مستحيل !!

رددها أكثر من مرة وهو فى حالة ذهول تام.

كان لا يدرى ، أو تعمد ألا يدرى بأن الماضى لا يموت.

ولكنه عاد .. فى صورة ابن الكفيل.

رآه يجلس وسط مجموعة من الساقطات والمحتالات.

يقهقه فى نشوة ، مختالاً بأمواله ومصدقًا لكلمات الإعجاب التى تتناثر من حوله.

رآه سليمًا معافى ونضرة الشباب تغطى ملامحه.

رآه متأنقًا وسعيدًا ومزهوا بنفسه وبإمكانياته.

رآه لاهيًا وساخرًا ومتعاليًا.

ودنت فى مخيلته صورة أمه الراحلة وأبيه الذى سبقها مقهورًا وقضبان السجن التى حاصرته .. و .. دناءة الكفيل !!

لحظة توقف عندها الزمن .. عاد الماضى اللعين ليرتمى فى أحضان الحقد الدفين.

وبصعوبة بالغة استطاع صفوت أن يلملم شتات إرادته ، واتخذ قرارًا بالانصراف دون أن يشعر به أحد.

ومرة أخرى يجد نفسه وحيدًا على الطريق .. لم تعد السماء كما كانت صافية ، بل تحولت إلى براكين ثائرة .. وأفرع الأشجار التى كانت تتمايل طربًا باتت تتشقق همًا ، والجداول جفت مياهها وأصبحت صخورًا متيبسة.

.. إلى أين ؟!

قالها همسًا والحسرة تسيطر على قلبه.

إلى واقع الماضى أم إلى ماضى الواقع !!

إلى الحقد أم إلى الحب الزائف ؟!

إلى من يلجأ !

شعر بأنه يترنح كالعاجز ، فاستند على حائط قريب لأحد المنازل. ودار بمقلتيه حوله وأمامه .. لم ير شيئًا.

تحـرك ببطء شديد ، وكأنـه يحمل فـوق كاهلـه مـا يفوق وزنه ، وخطـى ببضعة خطـوات بـلا هـدف. ارتبك مـن زغللة كشـافات سيارة مارقة بسرعة فأغمض جفنيه قهرًا ، وتذكر فريال فرضًا.

و .. عاد إلى "النايت كلوب" بوجدان مختلف وكأنه زائر جديد جاء باحثًا عن ملذات كان يترقبها فى أحلامه وخيالاته.

وبدا القـدر رحيمًا بـه عنـدما لاحظت فـريال تواجده فى المكان فاتجهت إليه مسرعة وبادرته قائلة :

ـ أهلاً يا صفوت .. متى حضرت ؟

أجاب فى شرود :

ـ المهم أننى وجدتك.

تلألأت ابتسامتها تحت الأضواء المتداخلة .. ثم قالت :

ـ يبدو أن الأمر مهم جدًا.

قال بحسم :

- أكثر مما تتصورين.

تلفتت حولها قبل أن تتساءل بحذر :

- ماذا تقصد يا صفوت ؟

اقترب منها بخطوة وأشار بيده فى اتجاه ابن الكفيل .. وقال :

- أترين هذا الشاب ؟

تحولت بنظرها فى اتجاه إشارته .. ثم عادت إليه قائلة بهدوء:

- نعم . إنه وليد الشرشارى أحد أثرياء الخليج.

أسرع بلهفة قائلاً :

- ماذا تعرفين عنه ؟

تدلت ابتسامة ساخرة على طرف شفتيها . ثم أجابت :

- إنه أحد الواهمين كغيره من رواد الملهى.

ازدادت حدة نبرته وهو يقول :

ـ هل تعرفينه جيدًا ؟

تمتمت بلا مبالاة :

ـ إنه مجرد سائح .. ولكنه أحد الزبائن الدائمين منذ ثلاث سنوات تقريبًا.

قال دون حياء :

ـ هل خضع لسيطرتك ؟

ابتسمت وهى تدعى التواضع .. ثم قالت :

ـ أنا لا أعرفه شخصيًا ، ولكنه على علاقة حب وطيدة بسهير زميلتى هنا.

تساءل بلهفة متربصة :

ـ كم ثمنها ؟!

عادت تدعى الغباء وقالت :

ـ ثمن ماذا ؟!

- ثمن صديقتك سهير.

بدأت تشعر بأن الأمر جاد بالفعل .. وهمست بعد لحظات صمت قائلة :

- ماذا عندك يا صفوت .. تريد أن تخبرنى به !!

لم يتردد .. ولم يناور .. ولم يكذب.

و .. أخبرها بحقيقة الأمر .. أخبرها بكل شىء.

أظهرت تعاطفًا حقيقيًا معه .. لأول مرة تشعر بمأساته ، ورددت بضع كلمات تحمل معانى الرثاء والشفقة .. ثم عادت تسأل بحذر :

- بماذا تفكر ؟

أجاب بشغف واستعطاف :

- أريد أن أعرف كل شىء عنه وعنها.

و .. تحركت كوامن الأنثى فى أعماقها المظلمة ، وأطلقت سراح

كلماتها بلا قيود لتخبره بكل شىء .. وبكل ما كان يتمنى.

أخبرته بتفاهة ذلك الشاب الماجن ، وكيف استطاعت زميلتها سهير أن تجعل منه صورة ماسخة لكيان لا إرادة لـه ، حيث اشترى شقة خصيصًا لها ليقضى معها فترة زياراته المتكررة .. ومن أمواله اقتنت السيارة والفيلا والمجوهرات .. و .. الحب الزائف.

أسرع يقاطعها متسائلاً :

ـ الشقة باسم من ؟!

أجابت بنبرة كشفت عن غيرتها من زميلتها :

ـ الشقة باسمه .. أما الفيلا فهى باسمها.

التقط نظرة الغيرة من عينيها وبادرها باستعطاف خبيث :

ـ أنا فى حاجة إليك يا فريال .. احتاجك بشدة.

ابتسمت بدهاء وقالت :

ـ لا عطاء بلا مقابل يا عزيزى.

أجاب بلا تردد :

ـ نصف مليون جنيه !!

شهقت دون إرادة واتسعت مقلتاها وهى تتساءل بلهفة :

ـ نصف مليون جنيه .. مقابل ماذا ؟!

قال بهدوء مثير :

ـ مقابل مفتاحين.

رددت باندهاش وتعجب :

ـ مفتاحين ؟

لاحقها مؤكدًا :

ـ نعم مفتاحان .. أحدهما خاص بشقته والثانى لسيارته.

قالت بتوجس :

ـ تريد أن تقتله !!

تجمدت ملامحه وانبرى قائلاً :

ـ أنا لست قاتلاً.

ـ إذن .. لماذا تريد مفتاح شقته ومفتاح سيارته ؟!

رمقها بنظرة غاضبة .. ثم قال :

ـ هل سألتك بماذا ستفعلين بالنصف مليون جنيه !!

وبنبرة ملؤها الدهاء والجشع .. تمتمت متسائلة :

ـ وسهير ؟

تدلت ابتسامة ماكرة على طرف شفتيه .. وهمس :

ـ يمكنك الحصول على المفاتيح منها دون علمها .. المهم أن يتم الأمر قبل عودته إلى بلاده .. وإلا اعتبر الاتفاق معك لاغيًا.

فاجأته على غير المتوقع قائلة بحزم :

ـ لن أفعل .. إلا إذا علمت الحقيقة.

مضت لحظات صمت متوترة بينهما ، وشرد بنظرته بعيدًا عن عينيها وكأنه يسترجع ذكريات الماضى البعيد .. ثم عاد إليها وهمس وكأنه يحدث نفسه :

ـ إننى أعلم الناس بالظلم الذى أصابنى منه ومن أبيه.

تساءلت بلهفة :

ـ أنت تبحث عن الانتقام منهما .. أليس كذلك ؟!

أجاب بحسم :

ـ بلى... وحتى لو نجحت فى ذلك .. فلن يشفا غليلى.

دنت منه بخطوة .. وهمت متسائلة :

ـ كيف ؟

ـ سأورطه فى مشكلة ، لكى يحضر والده إلى القاهرة.

أعادت بإصرار سؤالها :

ـ كيف ؟!!

أجاب بثقة :

ـ سأستعين بأحد رجالى ليضع لـه بعض الهيروين فى سيارته وشقته ثم أبلغ عنه الجهات الأمنية لكى يتورط فى تهمة الاتجار بالمخدرات.

تأملت ملامحه للحظة .. ثم فاجأته قائلة :

ـ ومن أين لك المال الذى ستدفعه لى ؟!!

ترقرقت ابتسامة راضية فوق شفتيه .. قبل أن يقول :

ـ أنا أخطط لفكرة رائعة وسأنفذها فورًا بمجرد موافقتك على هذا الاتفاق.

قالت بتبجح:

ـ وما هى ضماناتى ؟

ـ سأعطيك مائة ألف جنيه بمجرد حصولى على المفاتيح .. وباقى المبلغ بعد تنفيذ فكرتى.

رددت بسخرية :

- أصبحت تملك مائة ألف جنيه !

قال بجدية :

- لا داعى للاستهزاء .. ولا تنسى إننا متشابهان .. و .

صمت لحظة كأنه تذكر شيئًا فجأة .. ثم أردف :

- بالمناسبة .. أين عاشقك الولهان ثابت كريم.

أجابت باقتضاب :

- سافر إلى قبرص.

تقلصت ملامح وجهة تعبيرًا عن اشمئزازه .. ثم قال :

- إنه يمثل صورة حقيقية للواقع الظالم الذى نعيش فيه.

همهمت باندهاش :

- ثابت كريم .. أصبح فى نظرك صورة للظلم .. كيف ؟!!

قال بحماس شديد :

ـ نعم هو كذلك .. لو كان الواقع عادلاً لما منح هذا المستهتر كل هذه المزايا .. فهو يملك مالا وفيرًا .. وأملاكًا وأطيانًا .. وحياة هادئة .. وأمًا تحنو عليه .. وأناسًا يحترمونه .. وصحة امتلأ بها جسده البدين .. ومع كل هذا .. ترك ماله وضحى بأمه وبأرضه .. وبكل شىء .. مقابل شهواته وأحلامه الزائفة .. وعلى كل حال أنتِ خير عقاب له .. وهنيئًا لك بكل ما تحصلين عليه من هذا المعتوه الأهوج.

ـ عندك حق فى كل ما قلته يا صفوت .. الآن فقط أدركت ما هو الشىء الذى تحمله وراء أضلع صدرك .. فهو ليس قلبًا بكل تأكيد.

أجاب بنبرة خشنة :

ـ أيا كان الشئ الذى أحمله فى أضلعى .. فالذى لا تعرفينه أن إحساسى به وكأنه قطعة من جهنم تزداد لهيبًا واشتعالاً مع كل ذرة هواء أستنشقها فى صدرى.

وكأنه سقط فجأة فى أعماق جبل جليدى ، عندما بادرته قائلة :

ـ أنا موافقة على هذا الاتفاق.

حـاول أن يضـمها إلى صـدره مـن فـرط سـعادته .. ولكـنها تراجعت بخطوة مسرعة .. وقالت محذرة :

ـ ولكن بشرط.

تساءل بلهفة :

ـ ما هو ؟!

ـ أنا التى سأتولى مهمة التنفيذ حتى لا يكون بيننا ثالث. فالحذر واجب فى مثل هذه الحالات.

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة .. استطردت قائلة :

ـ وبمجـرد أن أنـتهى مـنها سـأخبرك تلفونـيًا .. لـتكمل أنـت بـاقى خطتك.

قال متعجبًا :

ـ وكيف ستحصلين على المخدرات ؟!

نظرت إلى عينيه بعمق .. ثم أجابت بعد لحظة :

ـ أفق الليل يضم الطيور المفردة .. و .. الجارحة.

همس متشككًا بيأس :

ـ والمال .. وطريقة تنفيذ الاتفاق.

استنفرت أنوثتها كلها وهى تردد بدلال طاغٍ :

ـ ستكتب لى إيصالات أمانة بكل المبلغ .. الآن وليس غدًا.

قال بنبرة مترددة :

ـ وما هو الضمان بالنسبة لى ؟!

فاجأته بقولها :

ـ ليس لك خيار غير طريقى.

أجاب مستسلمًا.

ـ سأفعل .. ولكن أتوسل إليك لا تدفعينى لكى أصبح قاتلاً.

ابتسمت بميوعة وهى تردد :

ـ أتوسل إليك أنا .. لا تحاول أن تهددنى.

و .. تناولت من حقيبتها بعض الوريقات البيضاء وأرفقتهم بالقلم .. ثم مدتهم إليه مع نظرة آمرة .. صامتة.

وكالمسحور .. انتهى من كتابة إيصالات الأمانة ، ثم دسهم فى حقيبتها .. واستدار منصرفاً بخطوة مفاجئة وهو يقول دون أن يلتفت إليها :

ـ أنا فى انتظار مكالمتك.

7

كان القمر بدرًا .. السماء صافية بالرغم من ظلمة الليل ، صدى ضعيف لزقزقة بعض الطيور العائدة إلى أعشاشها .. نسمة عليلة تحف أوراق الشجر فى تلامس حريرى دافئ.

فى هذه الأثناء كان صفوت حلمى يجلس مستندًا إلى جزع شجرة ضخمة امتدت أفرعها المورقة إلى حد التوحش بطغيانها على أغصان الشجيرات الأخرى.

سكن متلصصًا النظر فى التفافات بطيئة كالثعبان المتحفز .. وكأنه على موعد غامض أو مع كيان غير مرغوب فيه. موعد مع

الشيطان .. ولقاء مع ذاته !!

بدا مهمومًا وشاردًا .. الأفكار تتناحر فى رأسه باحثًا عن وسيلة للحصول على المال المطلوب لتنفيذ فكرة الانتقام.

طفرت إلى ذهنه صورة سماح.

تحاور مع شيطانه فى صمت :

.. ما هى مبرراتى لطلب النقود منها ؟

.. كيف تكون المبادرة !!

.. هل ستوافق !!

.. هل أخبرها بالحقيقة .. لعلها تؤيدنى وتساندنى.

.. هل ....

ولكنه انتفض واقفًا فجأة ، وكأن شيطانه قد أتى له بالحل السريع والمنطقى .. تحرك بين الأشجار بخطى ثابتة تعرف اتجاهها ومستقرها.

قادته قدميه إلى خارج المزرعة .. وراح ينتقل من طريق إلى آخر بخطوات سريعة .. و .. جريئة.

حفز كالفهد متجاوزًا قناة مائية ضيقة تفصل ما بين أرضين زراعيتين ، وواصل خطواته وهو يحدد هدفه نحو بناء من دورين يتوسط الأرض.

توقف برهة أمام بوابته .. تأكد خلالها من تنسيق هندامه.

ثم طرق الباب بإصرار ، وتلألأت الأنوار من الداخل تمهيدًا لظهور أحدهم. والذى ظهر بالفعل متسائلاً بخشونة :

ـ من أنت .. وماذا تريد فى هذه الساعة ؟

ـ أريد الحاج.

رمقه الآخر بنظرة فاحصة .. وكرر :

ـ الحاج من .. ومن أنت ؟

تلفت حوله وكأنه يبحث عن نفسه .. ثم قال :

- أنا صفوت حلمى .. أقيم فى مزرعة ثابت كريم.

طلب منه الرجل الانتظار ، وغاب عنه بضع دقائق .. بل سنوات. ثم عاد إليه وهو يفسح الطريق أمامه .. قائلاً باقتضاب :

- تفضل .. الحاج أنور سيستقبلك.

دلف وراء الرجل إلى داخل بهو كبير وأشار إليه بالجلوس على أحد الأرائك الكثيرة التى تملأ البهو.

فجلس صامتًا ، وهو يخفى اضطرابه بعد أن راوده إحساس بالندم على تلبية رغبة شيطانه بالحضور.

وبعد دقائق ليست بكثيرة .. تقدم نحوه رجل ضخم البنيان يسير بخطى تؤدة وقد وضحت ملامح السنين الطويلة على وجهه ومن أسفل شاربه الكثيف بادره بصوت كالانفجار :

- يا مرحب .. يا مرحب.

شعر بارتياح عندما تخلص من قبضة الرجل الصلبة .. ثم

تساءل على استحياء يشوبه الحذر :

ـ حضرتك عم الأستاذ ثابت !!

ـ نعم .. أنا الحاج أنور أخو والده غير الشقيق.

وقبل أن يتفوه صفوت بكلمة أخرى .. استطرد العم متسائلاً :

ـ أنت المهندس الزراعى المقيم فى المزرعة.

سرت رجفة بسيطة فوق شفتيه قبل أن يقول :

ـ فى الحقيقة .. أنا أدير كل أعماله.

تدلت ابتسامة ساخرة على طرف فمه وهو يردد :

ـ ثابت كريم أصبح لديه مدير أعمال.

لم يعلق.

فعاد الحاج أنور قائلاً :

ـ أى خدمة ؟!

وبشجاعة غير متوقعة .. أجاب صفوت بحسم :

ـ الخدمة لك أنت يا حاج أنور.

نظر الرجل إليه بصرامة وكأنه يتفحص باطنه .. ثم قال :

ـ أفهم أنك أتيت لزيارتى لتقدم لى خدمة.

أسرع يجيب باطمئنان :

ـ بالضبط .. وفى الحقيقة أنا ..

ولكنه صمت منشغلاً عنه لبرهة وهو يشعل سيجارته فى محاولة للسيطرة على توتره الجارف فى كيانه .. ثم أردف قائلاً :

ـ فى الحقيقة أنا علمت بعض التفاصيل عن خلافاتك القديمة مع جد ثابت بسبب ميراث شقيقك.

ضغط على نواجذه بقسوة وقد اكتأبت ملامحه .. قبل أن يقول:

ـ وهل علمت كيف اغتصب هذا الرجل حقى فى ميراث عائلتى بحجة أن المال ماله. وسجل كل الأطيان باسم ابنته.

ـ هـذه التفصيلات لا تفيد الآن .. فأنا جئتك لأعقد معك صفقة واضحة وصريحة .. بشرط ألا يعلمها ثالث بيننا.

تساءل بترقب :

ـ ماذا تقصد ؟!

لاحقه بسرعة قائلاً :

ـ أقصد كل خير .. و ..

وبدأ يسرد عليه خطته الشيطانية بهدوء شديد .. وعدد أمامه أكثر من وسيلة لكى يسترد حقه .. فإما أن يحضر له الختم الخاص بوالدة ثابت ويصدق به على تنازل منها لـه أو لأى أحد من أقاربه لنصف ما تملكه من أراضٍ .. أو أن يخطط لحيلة أخرى مستغلاً جهل الأم ويجعلها تصدق بختمها على توكيل بالبيع والشراء لـه شخصيًا. أو يحضر إليه الختم ويتولى هو ما يريد بعد ذلك .. كل هذا مقابل مليون جنيه فقط.

كان الرجل يتابعه فى ذهول بعد أن أخذته المفاجأة.

وبلهفة مكبوتة تساءل :

ـ وكيف ستتمكن من ذلك ؟!

أجاب بثقة يصاحبها شىء من الغرور :

ـ هذا الأمر يخصنى وحدى .. المهم عندى هو الاتفاق.

ـ وما الذى يضمن لى صدق قدراتك !!

قال بلا اكتراث :

ـ يكفيك أن تعلم بأننى على وفاق وشبه علاقة قوية بينى وبين سماح ابنة خالة ثابت .. وهى كما تعرف التى تقوم على رعاية الأم.

تمتم الرجل وهز رأسه كالبندول .. وردد :

ـ نعم .. الآن فهمت.

ـ طالما أنك فهمت .. أحب أن أسمع رأيك فى الموضوع.

أجاب بحزم :

ـ موافق.

ـ إذن أمهلنى أسبوعًا .. ولنا لقاء آخر لإتمام الاتفاق.

نهض مستسلمًا لقبضة الرجل الحديدية وهو يصافحه مودعًا. ثم ملأ رئتيه بالهواء بكل طاقتها بمجرد انصرافه خارج المنزل.

وبنفس طريقة الذهاب المتلصصة ، عاد مرة ثانية إلى المزرعة دون أن يراه أحد غير شيطانه ورفيقه الجديد.

سرقت الأحلام النوم من عينيه ، وراح يتقلب معها فوق فراشه ويحلق بها إلى آفاق بعيدة .. إلى عالم آخر يكتظ بمشاعر سوداوية كلها انتقام وشهوة التعذيب والإذلال.

كان يستبق بخياله أحداث المستقبل ، وتتراقص فى مخيلته صورة الكفيل وهو راكع أمام قدميه يتذلل له ويطلب منه المغفرة .. رأى "وليد الشرشارى" وهو مكبل بالقيود فى طريقة إلى السجن

ودموع الحسرة تدمر كبريائه الزائف.

حاول أن يغمض جفنيه ليقبض على صورته داخل وجدانه وهو يسير مختالا بانتصاره وانتقامه .. ينفق ببذخ ويأمر فيطاع .. ويعايش الخطايا وينعم بالصبايا.

تملكه إحساس بأنه الأقوى .. وأنه الأذكى ... والأعلم دون غيره من البشر.

أمضى ليلته متيقظاً .. تصور إنها برغبته ، ولكنه فى الحقيقة كان ينتظر حلول الصبح ليستكمل مسيرة مؤامرته .. لعل أعماقه القاتمة تتستر وراء شروق الشمس.

أخذته نشوة الثقة ، وقرر أن ينتهى من أمر سماح .. أصبحت لديه قناعة شديدة بأنه قادر فى أى لحظة أن يسوس مشاعرها فى الاتجاه الذى يرغبه ، أن يجعلها طائعة ومستسلمة بأمره .. أو بأمر الحب.

ولكن الحقيقة كشفت إمكاناته .. و .. خابت توقعاته لحظة لقائه بها. الحقيقة أن شفتيه ارتجفت أمام نظرة عينيها المسالمة ..

وتوارت أحاسيس الهيمنة والطغيان وغاصت فى أعماقه بلا أمل أمام هيبة طلعتها الملائكية.

كاد الغيظ أن يفجره وهو يتساءل فى حيرة : كيف يبدو هكذا هزيلاً أمام ذلك الكيان الرقيق.

كان يدور بكلماته حوله وأمامها ، ويكشف بتلميحاته على استحياء لعله يجد منفذًا لاختراقه إليها ويفصح عن مؤامرته.

ولكنه فشل.

ولم يكن عسيرًا عليها أن تدرك بحاستها النقية ، بأنه يعانى من أمر ما يخفيه ويخيفه.

فبادرته بحنان متسائلة :

ـ ماذا بك يا صفوت .. أراك مهمومًا وتحاول أن تخبرنى بشىء.

أسرع قائلاً بعد أن التقط طوق النجاة من خلال سؤالها :

ـ أحبك .. وأريد الارتباط بك.

طفرت حُمرة الخجل فوق وجنتيها .. وقالت بعد عدة لحظات :

- وهل حبك لى يجعلك مغتمًا هكذا.

أجاب بدهاء :

- أبدًا .. ولكن الطريق إليكِ ملئ بالأشواك والعراقيل.

تملكتها دهشة صادقة .. وقالت :

- ماذا تعنى بأن طريقى كله أشواك ؟!

ابتعد بنظرته عن عينيها وهو يقول :

- لا أتصور أن أكون فى حياتك ، وأنا عاجز عن إعادة حقوقك التى سلبوها منك.

انقبض صدرها وهى تتساءل فى حيرة :

- ماذا تقصد .. صارحنى أرجوك.

.. و .. صارحها.

تبدلت نبرات صوته إلى فحيح الأفاعى ، وتضخمت معانى الكلمات من سيل السموم التى كان يبثها فى أذنيها .. وعاد يلعن الحياة التى ضمت أمثال ثابت ووالدته والجد الأكبر .. وتفنن فى تعبيراته المندهشة لهؤلاء الناس الذين تمتلئ بطونهم بأموال اليتامى ولا يخشون العقاب الإلهى .. أغرورقت عيناه بدموع الحسرة على ما آلت إليه نفوس البشر .. وكيف أنه يشفق على ضياع وفقدان المبادئ وانصهار مشاعر الحب والوفاء فى بوتقة الشر .. و ..

فاجأها مرة ثانية قائلاً :

ــ ولكنى قررت ألا أستسلم لطغيانهم .. ووجدت الحل .. لقد اتفقت مع الحاج أنور على كل شىء.

انفلتت من بين شفتيها كلمات دون إرادتها .. وتمتمت :

ـ ماذا .. كيف !!

فلاحقها قائلاً :

ـ نعم اتفقت معه على كل شىء..

وعاد يسرد عليها ما دار بينه وبين الرجل ، وراح يؤكد لها أن ذلك هو الحل الوحيد لاسترداد حقوقها .. وضمان للحياة الكريمة التى ستجمعهما معًا بعد الزواج .. كل ذلك دون أن يظلم أحدًا.

كتمت صرختها .. وهمست فى ذهول :

ـ مستحيل.

أجاب مؤكدًا :

ـ المستحيل هو أن نفقد حبنا بعد أن وجدناه .. المستحيل أن نترك غيرنا يدمر مستقبلنا .. المستحيل هو أن يكون الفراق نهاية علاقتنا الجميلة .. والنظيفة.

قالت بانكسار :

ـ ولكننى لم أر منهم أى سوء من قبل .. بل كانوا كل أهلى وأحبابى .. وهم الذين تولوا رعايتى .. و ..

قاطعها بحدة :

ـ كفى مثاليات يا سماح .. ولا وقت للمجادلة .. فالاتفاق سيتم خلال أسبوع من الآن .. وعليك أن تختارى بينى و.. بين أوهامك.

واستدار منصرفًا فى الاتجاه الآخر ، وتعمد ألا يلتفت نحوها عندما صاحت إليه قائلة من خلال غيبوبتها :

ـ انتظر يا صفوت .. أرجوك لا تدعنى هكذا.

واستمر فى خطواته بإيحاء بأنه قد اتخذ قرارًا نهائيًا

وقد يمضى راحلاً .. بلا عودة.

وفى منتصف الطريق إلى موقع مسكنه ، توقف فجأة ليجيب على مكالمة هاتفية جاءته من فريال على هاتفه المحمول وهى تخبره باقتضاب قائلة :

ـ يا صفوت كل شىء تمام. وأنا فى انتظارك اليوم قبل غدًا.

قال بلهفة امتزجت نبراتها بالسعادة الغامرة:

ـ سأحضر صباح الغد.

وأنهى المكالمة .. ثم دار حول نفسه دورتين وهو يضرب الهواء بقبضة يده وكأنه يتحدى الكون بقوته.

8

القدر ...

هذه الكلمة أو ذلك المعنى ، كم تحمل الافتراء من بعض نفوس البشر. يسعون للشر بإرادتهم وعندما تلتهمهم المآسى ويغرقون فى لعاب الشيطان ، يلعنون الأقدار التى ظلمتهم وكأنها هى التى خططت ودبرت وساقتهم إلى طريقهم المظلم الكئيب.

كأن القدر هو الذى أذل صفوت حلمى وهو يقف أمام فريال متوسلاً راجيًا فى اليوم التالى بعد مكالمتها ، لعلها تصبر على اتفاقهما بضعة أيام .. ولكنها كانت أكثر منه شراسة وشراهة ،

ورفضت كل محاولاته .. وهى تردد مهددة :

ـ سألقى بنسخ المفاتيح .. وسألغى الاتفاق بيننا .. أمامك ثلاثة ليال فقط وبعدها لا تلم إلا نفسك .. وليد الشرشارى سيعود إلى وطنه بعد ثلاثة أيام .. فإما تنفذ الجزء الأول من الاتفاق وإلا سأعتبر الأمر منتهيًا.

حاول معها كثيرًا .. استعطفها بكلمات ذليلة .. وذكرها بالماضى الجميل الذى كان يجمع بينهما .. أعاد عليها سرد أجزاء من مأساته ظلم الأقدار له .. قدم لها الوعود بأنه سيكون لها عبدًا مطيعًا .. ساومها على استحياء بأنه سيتصدى لرغبتها فى الزواج من ثابت كريم ، ولكنه سرعان ما تراجع عندما أفصحت له عن وجهها الحقيقى وأخبرته برأيها فيه .. ابتلع مجبرًا كل إهاناتها وهى تواجهه قائلة :

ـ أنت إنسان تافه ومتسلق ومنافق .. ومثلك يمكننى أن أسحقه فى ثوانٍ .. فلا ترتدى ثوبًا لا يناسبك.

اعتذر مقهورًا .. طلب المغفرة على ذلة لسانه.

و .. قرر فى رحلة سريعة إلى المزرعة أن يتصل ببعض التجار الذين يتعاملون معه فى شراء المحاصيل والمواشى .. قبض جزءًا من المبالغ مقدمًا.وعاد مرة ثانية فى اليوم التالى لاهثا وشغوفًا للقاء فريال .. وبمجرد لقائه بها .. بادرها بلهفة قائلاً :

ـ أتيت لك بخمسين ألف جنيه مؤقتًا .. و ..

تناولت المبلغ وكأنها تخطفه .. ورددت :

ـ ستكون النتيجة بقدر هذا المبلغ التافه.

تساءل مذعورًا :

ـ ماذا تقصدين ؟

لم تعره اهتمامًا .. وتلفتت حولها وكأنها تستكشف المكان وقالت آمرة:

ـ اذهب الآن وعندما انتهى من الأمر سأبلغك .. ولا تعود إلى لقائى إلا ومعك باقى المبلغ ..وإلا سيكون مصيرك السجن.

وتركته منصرفة .. دون أن تمهله فرصة الرد.

تابعها بنظرة وهى تتوارى من أمامه .. وبكل مشاعر الحقد همس إلى نفسه :

ـ سأنال منك يومًا أيتها الفاجرة.

كاد أن يقتله الملل وهو جالس فى غرفته بالفندق .. مشاعره المتبلدة جعلته يتوهم بأن الزمن قد توقف .. عالمه بلا زمن .. حياة لا ينبض فيها غير نبض الحقد ورغبة الانتقام.

تحرك داخل الغرفة جيئة وذهابًا كالفهد المحاصر بالقضبان الحديدية .. ضباب سجائره بدا كالسحب الكثيفة المقبضة.

توقف يتأمل صورته فى المرآة .. جذب انتباهه أن ملامحه قد تغيرت .. تخيل ذلك .. سواد أعماقه استقر تحت بشرة وجهه .. عيناه تحولتا إلى أتون بداخله محرقة.

تنبه لرحيل الليل ، وبأن يومًا آخر قد ابتلع الأمس القريب.

أجرى عدة اتصالات هاتفية .. أكد مع الحاج أنور على الاتفاق ..

ولم يصدق أذنيه عندما سمع من سماح أنها قررت اختياره هو ، وبالرغم من ذلك انتابه إحساس ما بالانقباض .. فلا شىء يشغل تفكيره إلا موضوع فريال .. هى وحدها التى ستعيده إلى دنيا الحقيقة ، هى وحدها التى ستجعله يرى الصباح ويتنسم الهواء ويتعايش مع الآخرين ، هى وحدها التى ستعيده إلى نفسه .. صفوت حلمى .. بعدما تحول إلى كيان صخرى لا حياة فيه سوى وهم التنفس.

وفجأة تحرك الزمن .. جاءت اللحظة التى تحمل بشرى الشيطان .. من خلال اتصال فريال التليفونى به .. وكعادتها معه قالت باقتضاب :

ـ يا صفوت .. يمكنك الآن الاتصال بوالد وليد الشرشارى .. فهو فى طريقه للنيابة.

صرخ بقوة وكأنَّ صدره قد شُق بسكين حاد فجأة .. هذى بكلمات كالمعتوه .. دار حول نفسه بخطوات عشوائية .. تحسس وجنتيه بأنامله فاكتشف أنه يبكى .. دموع احتار فى أسبابها ، أهى

قطرات من السم أم هى نشوة الفرح .. ارتاح لإحساس تسلل إلى وجدانه بأنها دموع تحمل بشائر الانتقام.

حاول أن يتمالك نفسه وهو يملى على أحد أتباعه بالتليفون رقم الهاتف الخاص بالكفيل ، وأمره بأن يخبر الرجل بكارثة ولده ويطلب منه الحضور سريعًا.

ارتسمت على طرف شفتيه ابتسامة صامتة وهو يردد فى نفسه :

.. مكانى ليس هنا الآن.

فكان قراره بالعودة إلى المزرعة .. إلى بداية رحلة الثراء.

الساعة اقتربت من منتصف النهار .

شعر صفوت حلمى بإحساس مهيب يسيطر على كيانه ، وهو فى طريق عودته إلى دمياط.

توقف دون رغبة .. أوقفه ذلك الشعور الغريب كأنه تسلل من مسام جلده وأحاطه بقيد وهمى غير مرئى وشل حركته وأعجزه عن التفكير.

ما هذا ؟ !!

همس إلى ذاته كما لو كان يحادث ذلك الإحساس الذى هاجمه فجأة.

تحرك فى اتجاه آخر ومختلف عما كان فى نطاق قراره.

لم يتخيل لحظة إنه يتجه إلى حيث يرقد أبواه.

وقف على أعتاب المقبرة. مترددًا ، متخاذلاً ، فاقد الإدراك .. و .. مقهورًا ، وبحذر يسبقه الخجل والخوف ، تقدم بخطى مرتجفة إلى الداخل. انتابه إحساس بأنه يقف وجهًا لوجه أمام والديه.

تسمر فى مكانه .. لا شىء ينبئ بأنه موجود سوى نبضات قلبه وحركة مقلتيه التى دارت باستحياء تمسح المكان بنظرات زائغة.. ومرتعبة. طفرت الأحرف فوق شفتيه وكأنها تنتحر ، وهمس بنبرة مسموعة بالرغم من ضعفها :

.. يا أبى أنا صفوت.

أنا لا أعرف إن كان فى مقدرتكما سماعى أم لا .. ولكنى أتيت وذلك هو الأمر الوحيد المتيقن منه.

أتيت .. ولعلنى فى هذه اللحظة أستطيع أن أرفع غضبكما عنى. لقد حانت الفرصة يا أمى لكى أنتقم لك من هؤلاء الوحوش الآدمية الذين لم يرحموا ضعفك وأسقطوك صريعة المرض والموت ، جئت يا أبى ، لأطلعك على نهاية الجبابرة الذين قهروا كرامتك وأذلوا شموخك ودمروا هامتك.

أتيت لأخبركما بأننى سوف انتقم لنفسى.

أنتما الآن فى عالم لا نفاق فيه ولا رياء .. عالم ملؤه الحب والتراحم والعدالة. بخلاف عالمنا الذى نعيش فيه .. الذى قد تموت فيه العدالة فوق منصة العدل .. وتنتحر فيه الأخلاق والقيم والمبادئ، بسبب عجزها عن مقاومة الشرور والفجور وطغيان القوة المتسلطة.

أنا لا أبرر خطيئتى يا أبى .. ولا أتحايل على الحقيقة يا أمى.

فنحن نقاوم الخطيئة بالخطيئة .. ونحصل على حقوقنا

بالاغتصاب والسرقة. نهرب من القهر بممارسته على الآخرين الضعفاء .. ونحقق آمالنا من خلال مصائب غيرنا.

نحن يا أمى نقايض بالحب ولا نرعاه ، ونضحى به وليس من أجله

نتسول صداقة الأصدقاء بالمكائد والدهاء.

ذلك هو عالمى يا أبى .. تلك هى دنياى يا أمى.

فهل غفرتما لى خطيئتى ؟!!

صمت فجأة .. وراح يسترق السمع وكأنه كان ينتظر إجابتهما.

ولكن السكون بدا موحشًا .. فقرر الرحيل.

خرج إلى الطريق .. واندس داخل سيارة أجرة بعد أن طلب من سائقها أن يوصله للمكان الذى يريده.

لم يعرف كم من الوقت مضى عليه وهو فى طريق العودة.

كل ما لاحظه عند وصوله إلى المزرعة أن الشمس قد غربت ، وكأن الطبيعة والأرض الطيبة ترفض استقباله تحت ضوء النهار أو فى رحاب النور.

اضطرب من نظرات العاملين وهو فى طريقه إلى الفيلا التى تتوسط المزرعة وكأنهم يرونه للمرة الأولى .. هاجمة إحساس غريب وكأنهم يرونه للمرة الأولى .. أرسل بصره بعيدًا فى اتجاه بوابة الفيلا، تمنى أن تكون سماح فى انتظاره .. أزعجه الصمت المريب الذى أحاط بالمكان .. حاول أن يستدعى إلى مخيلته أحلام الغد.

المال ، والانتقام ، والقوة .. وقلب سماح.

وما كاد يضغط برفق على جرس البوابة. حتى خُيل له بأن الكون قد انفجر فجأة ، وبأن الأرض انشقت تحت قدميه وابتلعته فى باطنها حيث اللهيب ودوامات البراكين .. لا شىء حوله غير أيادى بشرية راحت تتجاذبه من كل أطرافه لتمزقه وتحوله إلى فتات وبقايا. وجد نفسه .. أمام ثابت كريم.

أذهلته المفاجأة ، ونظرات ثابت الصامتة جمدت الدماء فى عروقه.

لحظة ضمت فى ثناياها كل معنى للحياة .. والموت.

وبهدوء له تأثير الرعد فى أذنيه .. بادره ثابت قائلاً :

ـ ادخل يا صفوت.

استجاب لدعوته كالمسحور وتبعه إلى الداخل لتتلقفه الصاعقة الثانية ، عندما وجد الجميع فى انتظاره.

الأم الكفيفة تتصدر مجلسهم وبجوارها جلست سماح وهى تتأمله بنظره ملؤها الإشفاق .. بينما ظهرت فى الجانب الآخر فتاة شقراء غريبة عن الأهل والوطن .. كما جلس بعض رجال العائلة يتقدمهم الحاج أنور. وانتحى ثابت جانبًا لنفسه وهو يشير إليه فى اتجاه أحد المقاعد .. وقال بنبرة حزينة :

ـ اجلس يا صفوت .. فأنت ليس بغريب عن الدار.

جلس .. بل تهاوى فوق المقعد ورأسه منكسة إلى الأرض ، وظل صامتًا دون أن يتحرك له جفن.

وكأنه فى حلم كئيب وكابوس رهيب .. ترامى إلى مسمعه صوت الأم .. قائلة :

ـ لماذا يا ولدى .. لقد تعاملنا معك وكأنك واحد من عائلتنا.كنت أظن أننى فى مكانة أمك .. لقد أحببتك مثل ثابت .. و ..

وبدأ صوتها يتشح بحشرجة البكاء .. ثم أردفت :

ـ الله يلعن الشيطان .. فأنا إلى اللحظة الأخيرة لم أكن مصدقة لكل ما قيل لى .. تمنيتك ألا تأتى فى هذا التوقيت .. تمنيت لو تصاب فى حادث يعيق حضورك فيصدق حدسى .. ولكن خاب ظنى فيك يا ترى لو كانت أمك على قيد الحياة ، هل كانت سترضى عن تصرفك هذا .. هل ..

ولكن الحاج أنور يتدخل فى الحديث مقاطعًا ، وهو يرمقه بنظرة قاسية .. وقال :

ـ أنصت إلى جيدًا يا أستاذ .. فأنا لا أعرفك ولا أعرف كيف كانت بيئتك ولا يهمنى على أى أخلاق تربيت .. ولكن المهم عندى أن تعرف أن أغلب الناس ليسوا على شاكلتك .. فنحن نعيش فوق أرضنا الطيبة ، ونتنفس هواء نقيًا ، ونأكل حلالاً. ولم نتعود على

المؤامرات والدسائس مهما كانت المغريات .. و ..

التفت نحو سماح .. ثم استطرد :

ـ الله يبارك فى ابنتنا سماح ، لأنى وجدتها قد تولت مهمة كشف مؤامرتك للحاجة وللأستاذ ثابت الذى استدعته للحضور من سفره. فنحن قد يكون بيننا خلافات عائلية ولكن لا نسمح مطلقاً للشيطان وأعوانه أن يدنسونا .. ويجعلونا ننسى أن الله يرانا.

ثم نهض فجأة وتبعه رجاله فى النهوض .. والتفت إليه وهو لا يزال منكس الرأس .. ثم قال :

ـ أنا لا أملك طردك من هذا البيت النظيف .. وعليك أن تحمد الله لأنك لست فى بيتى وإلا كان الأمر مختلفاً تماماً معك.

ثم أدار رأسه وهو ينصرف مردداً بحزم :

ـ استودعكم الله.

واتجه للباب منصرفاً مع رفاقه.

وبمجرد انصرافهم ، تحرك ثابت كريم بهدوء لا يتناسب مع الموقف المتوتر ، واتجه نحو الباب وفتحه. ثم أرسل نظرته إلى صفوت حلمى الذى استشعر بما يلمح به صديقه السابق بأن يترك المكان فورًا.

وكأنه يحمل أطنانًا من الأثقال فوق كاهله. بدأ صفوت فى النهوض ببطء شديد وهو خافض الرأس وشاحب الوجه ، وزحفت خطواته الثقيلة تمسح الأرض فى اتجاه الباب دون أن يلتفت إلى أحد أو يتفوه بحرف واحد.

وما كاد يصل إلى منتصف الطريق حتى هوى على الأرض بشكل مفاجئ وكأنه قطعة من النيازك السماوية قد سقطت فوق الأرض فكان ارتطامها شديدًا ومفزعًا لمن حوله.

ودون أن تشعر سماح وجدت نفسها تنطلق كالسهم نحوه وهى تحاول إنقاذه من غيبوبته ، وصاحت صارخة :

ـ استدعَ الطبيب يا ثابت فورًا.

وانفلتت صيحة الأم وهى جالسه فى مكانها مرددة :

ـ يا ضناى يا ابنى .. ماذا حدث يا سماح .. فأنا لا أرى شيئًا. !!

ولم يكن ثابت أقل منهما توترًا ، فأسرع إليه يهزه من كتفيه برفق فى محاولة يائسة لإعادته إلى رشده. ولكن دون جدوى. فهرول إلى التليفون منشغلاً فى طلب الطبيب. بينما تجمع ثلاثة من الرجال العاملين بالمزرعة وحملوا صفوت فوق سواعدهم القوية واتجهوا به إلى الطابق الأعلى حيث توجد غرفة ثابت بناء على تعليمات من سماح.

وتحاورت العيون فى صمت .. خاصة بين ثابت وسماح.

الوقت يمضى مشحونًا بالرهبة ، فى انتظار قرار الطبيب الذى حضر مسرعًا لإنقاذ الغائب عن الوعى.

وبعد عدة دقائق أخبرهم الطبيب بأن الرجل قد أصيب بصدمة عصبية شديدة أفقدته توازنه ومداركه ، نتيجة لموقف شديد التأثر على أعصابه وأيضًا لإرهاقه الملحوظ وضعف مقدرته المناعية.

ونصحهم بنقله للمستشفى فى أسرع وقت ممكن.

وفى أقل من ساعة زمن ، كان صفوت حلمى يرقد فوق فراشه داخل المستشفى وقد تراشقت فى عروقه أطراف الأنابيب المطاطية الرفيعة التى تتولى نقل السوائل المقوية إليه ، بالإضافة لبعض الإسعافات الأولية التى قررها أطباء المستشفى والذين أخبروا الجميع بعدم جدوى تواجدهم حول مريضهم الذى سيظل غائبًا عن الوعى ساعات طويلة.

وتأهب الجميع للانصراف ، ملتزمين بتعليمات الأطباء. وبدأوا فى التحرك الواحد تلو الآخر ، وتنبه ثابت بأن سماح تتلكأ قليلاً فى الانصراف ، فعاد إليها لكى يحثها على التحرك. وما كاد يقترب منها حتى توقف فجأة. وقد احتبست الكلمات فى حلقه عندما لاحظ انسياب الدمع من عينيها ، والتقت نظرتهما الصامتة مرة ثانية ، ولم يجد مفرًا من تجنب الحوار معها وأن يستدير وكأنه لم يلحظ شيئًا ، وبعد عدة خطوات ردد بصوت مسموع دون أن يلتفت نحوها .. قائلاً :

ـ هيا يا سماح .. السيارة تنتظرنا.

فتبعته دون تعليق.

الضباب مهما غُلظت كثافته لا ينفى وجود الشمس المشرقة ، والتاريخ وإن اختلفت أحداثه وتعاقبت لا يبدل معنى الزمن .. والمسافات تطول وتقصر بالنسبة للآخرين فقط بينما هى ثابتة .. والأمواج مهما ثارت وارتفعت فمآلها الذوبان فى بحارها .. والطيور مهما طال تحليقها فهى حتمًا تعود إلى أوكارها ، والمشاعر الطاهرة تظل دومًا صادقة مهما تعرضت لموجات من الأحداث الظالمة.

هكذا كانت سماح .. ولا تملك غير أن تكون كذلك !!

بدأ الفجر يزحف إلى الأفق ، وبدأت معه جفون صفوت حلمى تهتز من ثباتها فى لحظة يقظة شبة غائبة.

أدرك أنه فى مكان غير المكان ، وأنه تعرض لإغماءة عنيفة ولكنه لا يعرف كيف استقر فى غرفة المستشفى.

تخلص من الأنابيب المطاطية ، واستدعى مشرفة العنبر التى هالها تصرفه الأهوج .. تصورته فى البداية إنه فى حالة هياج عصبى ، حاولت أن تطمئنه على حالته . أن تهدده باستدعاء الطبيب .. أن تحمله مسئولية تصرفه .. أن تقلقه على صحته نتيجة لتصرفه هذا ..

ولكنها فشلت أمام إصراره العنيد وهو يطالب بالرحيل.؟

وفى محاولة يائسة منها . أخبرته قائلة :

- لا يوجد مسئول الآن يرد إليك المبالغ المودعة لحسابك فى خزينة المستشفى .. ثم ..

ولكنه قاطعها وهو يخطو منصرفاً بإصرار :

- ردوا المبالغ لأصحابها .. فهم أحق منى بها.

وأسرع بخطوات مترنحة إلى خارج المستشفى ، والفتاة تقف فى ذهول تراقب انصرافه ، ولسان حالها يردد :

.. على كل حال ليست عندى تعليمات باعتراض طريقه !!

9

كان صباحًا مذهلاً فى كل شىء .. فى مفاجأته وأحداثه ونتائجه.

لم تصدق فريال نفسها عندما فتحت باب شقتها لتتبين صاحب الطرقات المتتالية فى هذا الوقت المبكر.

وجدت صفوت حلمى يقف أمامها هزيلاً كالمومياء ، كانت المرة الأولى التى يرتاد فيها منزلها ، وبصعوبة بالغة تخلصت من ذهولها بعد عدة لحظات ، استجمعت خلالها قدرتها الذهنية .. وهمست غير مصدقة:

ـ صفوت .. كيف .. أقصد تفضل !

دلف للداخل وهو محتفظ بصمته ، بينما أردفت هى قائلة :

ـ أهلا بك .. تفضل اجلس .. و ..

تلفتت حولها فى حيرة ، وواصلت كلماتها بتوتر واضح :

ـ كم الساعة الآن يا ترى ؟!

أجاب وهو يمسح وجهه بكفيه ، وكأنه ينفض عن نفسه غبار الطريق .. والأحداث :

ـ لا أعرف بالضبط.

تساءلت بتوجس :

ـ هل علمت بما حدث ؟!

أومأ برأسه فى إشارة انهزامية .. ثم قال :

ـ نعم .. لقد اتفقوا جميعًا على أن يفضحوا أمرى.

أخذتها لحظة دهشة سريعة ، قبل أن تقول :

ـ ماذا تقصد .. ومن هم الذين تتحدث عنهم ؟!

ـ أتحدث عن سماح .. و ..

قاطعته بلهفة :

ـ أنا أحدثك عن وليد الشرشارى.

جحظت عيناه وتشنجت ملامح وجهه ، وهو يردد :

ـ وليد الشرشارى .. ألم تخبرينى بأن النيابة تحقق معه !!

ـ نعم حققت معه .. ولكن.

ـ ولكن ماذا ؟!

نهضت وهى تضم طرفى الروب حول خصرها .. ثم التفتت إليه قائلة بجدية :

ـ يبدو أن الأمر أكبر كثيرًا مما نظن .. وأن هناك حسابات أخرى لم نعطها حق قدرها .. و ..

انتفض وكأنه قد أصيب فجأة بلدغة مجهولة المصدر .. وتساءل مذعورًا :

ـ ماذا تقصدين .. أشتم منك رائحة الغدر يا فريال !!

رمقته بنظرة مشمئزة .. ثم قالت بحنق :

ـ الغدر له أصحابه يا صفوت .. وعلى كل حال هذا ليس

موضوعنا الآن.

- إذن اخبرينى ماذا تقصدين ؟!

و .. أخبرته.

وهى فى الحقيقة سحقت كل مقاومته ، وشتت أمانيه وأحلام يقظته.

أخبرته كيف تقدم سائق وليد الشرشارى الخاص إلى النيابة وأقر أمامها بأن كمية المخدر التى بالسيارة وأيضًا المضبوط فى الشقة هو يخصه ولاستعماله الشخصى دون علم وليد.

أخبرته كيف باع الرجل نفسه وحريته ، وسقط أمام إغراء سلطان المال ، وكيف أفلت وليد الشرشارى من التهمة بكل سهولة بعد ما استعان بقدرته المالية ولوح بها أمام احتياج السائق ومعاناته من مخالب الفقر ولعاب الطمع ودغدغة الجشع.

و .. تملك الخوف كيان فريال ، عندما رأت الحالة التى انتابت صفوت أثناء سردها للأحداث الماضية .. وتشككت للحظات بأنه قد أصيب بالجنون وفقدان العقل المفاجئ. حيث راح يضرب جدار

الحائط بقبضتى يديه بقوة لدرجة إسالة الدماء من بين أنامله ، ثم يعود ويخطوا فى اتجاهات مختلفة ومضطربة وهو يصيح صارخًا :

ـ الكلاب .. المجرمين.

.. لابد وأنه أغراه بالمال وأغدق عليه بالوعود .. هذا القذر الذى وافق أن يبيع نفسه وضميره مقابل المال .. هذا ..

ثم عاد من جديد لحالته الهستيرية ، وأخذ يركل بقدميه كل ما يعترض طريق خطواته من موائد صغيرة أو أوانى الزهور الخزفية التى استقرت فى أركان الردهة.

كادت أن تلفظ أنفاسها من شدة الهلع ، عندما تسمر فجأة أمامها وهو يرمقها بنظرة يتطاير منها الشرر والشر.

ثم قال بصوت كالرعد :

ـ قد تكون القصة من أكاذيبك يا فاجرة.

حاولت أن تنفى ذلك ، ولكن صوتها احتبس فى حلقها .. واقترب منها بخطوة أخرى .. واستطرد بعنف :

ـ سأقتلك إذا ما اكتشفت مؤامرتك .. و ..

وفى لحظة مباغتة هوى بكفة فوق وجهها بصفعة قوية كادت أن تفقدها بصرها ، وترنحت إلى الأرض وهى تصرخ من قسوة اللطمة، وفى ثانية استعادت توازنها وقفزت فى مواجهته كالفهد الجائع. بجرأة غير متوقعه ، ثم قالت صارخة :

- لماذا لا تصدق ما حدث يا حقير .. انظر إلى نفسك أولاً .. فأنت أيضًا قايضت بكل شىء مقابل المال .. بل كنت أكثر حقارة من السائق وضحيت بأهلك وكرامتك وحريتك يا عبد.

وقبل أن يعيد الكره معها ثانية فى محاولة لصفعها ، تراجعت بخطوة سريعة متفادية ضربته ، وارتفع صوتها لدرجة مقلقة وهى تردد :

- انصرف من بيتى قبل أن استدعى لك الشرطة ، وأعيدك للسجن الذى أتيت منه.

صمت فجأة .. ليس خوفًا من تهديدها وكأنه تذكر حقيقة صورته وبأنه بالفعل يشارك السائق صفاته بل قد يزيد عنه سوءًا.

و .. طفرت حالة القهر على خطواته وهو يتخذ طريقه لخارج الشقة.

وبالرغم من زحام الطريق. لم يعد يشعر بشىء .. وكأنه

تلاشى.. مجرد كيان فارغ من أحشائه ورئتيه .. سراب لا وجود له ، كأنه حلم فى وجدان شخص آخر .. ضباب تسوقه رياح الخريف ، مجرد وهم يسبح فى دنيا الخيال.

لا شىء أعاده إلى الواقع غير إحساسه بلسعات اللهيب التى راحت تتقافز من بين جفنيه.

بكى ذلاً .. واستجاب قهرًا.

تسلل صدى صوت من أعماقه .. متسائلاً :

.. إلى أين ؟!

الموت أحق بى ، من غد لا رجاء فيه.

.. إلى أين ؟!

وكأن حياتى كلها ماض .. ليل بلا نهار ، بئر مسموم لا نفع منه ولا فيه .

لسان فى فم أبكم ،، وكلمة ليس لها معنى.

.. إلى أين ؟!

وكأنى داء بلا دواء. خطوات بلا طريق.

يا إلهى .. قد أسأت إلى نفسى أجعلها تغفر لى قبل أن ألقاك .. يا إلهى لم ولن أجد ملاذًا سوى رحمتك وغفرانك .. و ..

دون تردد أشار لسيارة أجرة واستوقفها قائلاً لسائقها :

ـ إلى شبرا من فضلك.

بدا شاردًا وهو يتابع الجموع من وراء نافذة السيارة ، شعر وكأنه محمول فى نعشه وكل البشر لا يرغبون فى وداعه .. لا أحد حتى الزمن كان غائبًا بالرغم من طول المسافة.

قال هامسًا فى تردد :

ـ هنا من فضلك.

ترك السيارة .. وبدأ يصعد درجات السلم الذى شهد قفزاته الطفولية وسعادته فى صباه .. وذكريات شبابه.

وبطرف إصبعه المرتجف ضغط على الجرس.

استقبله هشام ببهجة حقيقية .. ثرثر كثيرًا معبرًا عن ترحابه واشتياقه إليه .. ولكن صفوت كان قد ارتمى فى أحضان مشاعره

المتباينة والمتشابكة ، فبدا كالأصم أو المذهول لا تبدو على وجهه أى تعبيرات أو إيماءات ، واتجه مباشرة إلى غرفة والديه ، وهمس بصعوبة قبل أن يدلف إلى الداخل قائلاً :

ـ سأقيم فى غرفة أبى ، وعندما احتاج إليك سأطلبك.

لم يستطع هشام أن يخفى اندهاشه ، ولكنه لم يكن يملك سوى الصمت والموافقة.

ثلاث ليال قضاها صفوت داخل الغرفة وكأنه فى سجن إرادى.

لا يقابل أحدًا ولا يتحدث مع أحد .. ولا يحتاج لأحد.

فقط تعايش فى يقظته مع خيالات أحداث الماضى بكل ما فيه من آمال محطمة وطموحات مدمرة ، وذكريات مؤلمة.

ومستسلمًا فى غفوته إلى كوابيس مرعبة وجدانيًا .. ومخجلة نفسيًا.

وكأنه بتقوقعه هذا يطلب الحماية قبل المغفرة من والديه ، مرتضيًا نفس مصير الأفيال عندما تشعر بقرب نهايتها ، فتنفرد بعيدًا عن القطيع فى انتظار لحظة الموت.

رغبة يتدفق منها نزيف الكبرياء فى لحظات ضعف ويأس .. واستحياء.

رأى صورة نفسه من داخلها .. تمنى لو استطاع أن يتقيأها إلى خارج كيانه .. أفزعته حقيقة ذاته ، وكأنه اكتشف فجأة أنه كيان بلا ظلال ، مجرد وهم لا حاضر ولا ماض له.

تمنى أن يكون بلا ذكرى.. ولا ذكريات.

ولكن كان للواقع رأى آخر.

عندما أخبره شقيقه بوجود زائرين لـه ينتظرونه فى غرفة الاستقبال.

اهتز كيانه بشدة ، حينما فوجئ بثابت كريم وبرفقته الفتاة الشقراء ردد بلا وعى :

ـ مستحيل .. أنا لا أصدق عينىَّ !!

أطلق ثابت ضحكته المعتادة .. ثم أجاب :

ـ ألا تدعونا للجلوس أولاً.

تقدم نحوهما فى هرولة وهو يقول :

ـ تفضل يا ثابت بك .. و ..

التفت نحو الشقراء وأردف :

ـ هل تتحدث العربية ؟

أسرع ثابت قائلاً بسعادة :

ـ هذا خطأى .. فأنا لم أعرفكما ببعض .. و ..

أحاط كتفها بذراعه .. وقال :

ـ أعرفك بزوجتى فردوس .. إيزيس سابقاً.

وقبل أن يفيق صفوت من دهشته ، فوجئ بالفتاة تقول بكلمات عربية بطريقة محببة :

ـ أنا سعيدة برؤيتك يا مستر صفوت.

اختلس نظرة سريعة إلى ثابت ، ولكنها تحمل العديد من التساؤلات الحائرة ، وأدرك الآخر ما يجول بخاطره .. وقال بوضوح غريب :

ـ إذا كنت تقصد موضوع فريال .. فيا عزيزى هى وأمثالها يمكننا

أن نمضى معهن بعض الوقت ، ولكن من المستحيل أن تصبح إحداهن شريكة حياة أى رجل محترم .. و .. .

انفجر فى ضحكة مجلجلة واستطرد قائلاً :

ـ خاصة إذا كان بحارًا مثلى.

وراح يسرد عليه كيف تعرف على إيزيس أثناء رحلاته المتكررة لأثينا ، مشيرًا إلى كونها من أسرة عريقة لها جذور إسكندرانية حيث كان يستوطنها جدها الأكبر لسنوات طويلة ، وإنها تعلمت العربية من أقربائها فى الإسكندرية. ثم ... تحول فجأة عن موضوع حديثه .. وقال بود حقيقى :

ـ اعتقد انك حصلت على إجازة طويلة .. وهذا يكفى لأن كل الأعمال متوقفة بسبب غيابك.

عاد الوجوم يسيطر على ملامح وجه صفوت .. حاول أن ينطق بأى حرف ولكنه فشل .. مما دفع بثابت لأن يواصل قائلاً :

ـ يا صفوت نحن لسنا ملائكة معصومين من الخطأ .. وأنا أول الناس الذى يعرف حقيقة الظروف التى دفعتك إلى ذلك. كما

إننى على يقين بأنك من أصل طيب .. ولهذا أنا حريص على صداقتك.

همس وهو يخفى أغروراق عينيه :

ـ فى الحقيقة .. أنا.

ولكنه اضطر لأن يصمت ، عندما قاطعة ثابت وهو يمد إليه ببضعة أوراق .،. وقال بجدية :

ـ هـذه الوريقـات تخصـك .. لم تكلفـنى سـوى بضـع دقـائق رخيصة أمضيتها فى مساومات قذرة .. وأحمد اللـه إننى نجحت فى مهمتى.

كاد أن ينفجر فكى صفوت من شدة ضغطه على أسنانه .. غيظًا . وخجلاً وازداد إحساسه بالضآلة أمام نفسه ، عندما أدرك بأن هذه الأوراق ما هى إلا إيصالات الأمانة التى كتبها لفريال أثناء اتفاقية الشيطان.

وقبل أن يعلق .. فاجأته فردوس قائلة :

ـ زوجى يحبك كثيرًا يا مستر صفوت.

وكصوت الصدى .. أجاب هامسًا :

ـ أنا لا استحق هذا الحب.

انبرى ثابت قائلاً بحماس :

ـ هل ستتدخل فى مشاعرى أيضًا .. هذا الأمر يخصنى وحدى .. و ..

ونهض متأهبًا للانصراف .. واستطرد :

ـ على كل حال يجب أن تعلم إننا جميعًا نتمنى عودتك .. خاصة ..

وصمت لحظة ، ذاب خلالها وجدان صفوت .. ثم عادل مردفًا:

ـ خاصة .. أمى.

وترك لـه نظرة خبيثة .. قبل أن ينصرف مع زوجته خارج الشقة.

بينما ظل صفوت متسمرًا فى مكانه ، بعد أن شل الذهول حركة خطواته ولم يعد قادرًا على أى تصرف.

دعوة للحب يحملها صباح يوم من أيام الربيع للطبيعة.

هكذا شعر صفوت حلمى وهو فى طريقه للبحث عن عمل جديد ، بعدما اتخذ قراره بأن يفارق شيطانه ، ويقبر رغباته الانتقامية.

وكأن زيارة ثابت قد كشفت لـه بأنه كان يعيش فى دنيا غير الدنيا .. ويرى الحياة بعين غير ما تراه أعين الآخرين.

أدرك أن الخير والسماحة يمثلان حقيقة الواقع ، وبأن الشر لا يستوطن إلا داخل الأعماق المظلمة .. وما أقسى معاناته من ظلمة أعماقه.

الأشرار يسعون للشر بإرادتهم ولا يُفرض عليهم.

وهو الذى سعى إلى الشر .. وهو أيضًا الذى قرر فراقه.

ولأول مرة منذ سنوات طوال يلاحظ أن الشفاه يمكنها أن تحمل الابتسامات وليست الأنات والآهات ، والناس من حوله وجوههم مشرقة وأعينهم تبرق بمعان كثيرة طالت غيبتها عنه ، بعضها أمل وتفاؤل وغيرها إصرار وطموح ، وأغلبها إيمان بالقدر المحتوم.

لم تحبطه محاولاته الفاشلة ، وهو ينتقل من مكان إلى آخر باحثًا عن عمل يتناسب مع مؤهلاته .. أمات فى صدره كل ذكريات ماضيه ، وأفسح لرئتيه فرصة استنشاق هواء نقى وأطلقه منها أكثر نقاءً.

عاد إلى إنسانيته فكافأته عدالة السماء.

وكان الاختبار من خلال مكالمة هاتفية تلقاها من فريال وهو فى رحلة بحثه عن عمل ، بعد منتصف النهار.

لم يراوده إحساس بالتشفى ولا بالابتهاج ، عندما أخبرته بأن وليد الشرشارى سقط بالأمس من " منور " المصعد وهو فى حالة سكر شديد أثناء مغادرته للنايت كلوب ، وتخيل وجود المصعد أمامه فانزلقت قدميه ، وهوى عدة طوابق سقط بعدها فوق سطحه لتتمزق أضلعه وعظامه ، وكأنها خيوط حريرية.

لم يسعده ذلك النبأ .. سألها فقط عن مكان المستشفى التى يرقد فيها ، أسرع إلى المكان .. واستفسر عن رقم الغرفة ، واتجه نحوها ، وعند منتصف الممر لاحظ الزحام الشديد ، الذى يحول دون مرور أحد غير المتجمهرين.

اقترب بهدوء وراح يتخطى الواحد بعد الآخر بترقب وحذر ، وكأنه كان متوقع أمرًا ما لا يرغب أن يفاجئ به.

وما أن وصل إلى الصفوف الأولى. حتى تشنجت قدماه وتمنعت عن الخطى .. رأى الكفيل يتوسط المجموعة المتقدمة ، والتقت نظرتهما فى لحظات عصيبة وغريبة .. وغير متوقعة.

كاد أن يفقد توازنه من هول الدهشة ، عندما فوجئ بالكفيل يندفع نحوه مرددًا :

ـ أرأيت يا أستاذ صفوت ما حدث لصديقك وليد .. أدعُ له بالشفاء!

ردد العبارة بهدوء محير ، وكأنهما لم يفترقا طيلة هذه السنوات وبأن الرجل لم يغدر به يومًا.

أمسك بذراع صفوت وأخذ يدفعه إلى أقرب موقع لغرفة الإنعاش وهو يشير إلى ولده قائلا بتلعثم :

ـ لقد تهشمت عظامه وانكسر عموده الفقرى .. مسكين وليد من المؤكد أنه سيصاب بالعجز التام.

صمت ولم يعلق ، بينما واصل الكفيل كلماته دون توقف ، وكأنه لا يطلب منه غير الإنصات.

فاختار أن يتراجع بهدوء ، وعاد يخترق الأجساد المتلاصقة بعد أن اتخذ قراره بترك المكان .. أو كهف الخفافيش.

تنبه لحوارات المحتشدين وهم يثرثرون بالرغم من أن لا أحد منهم منتبه للآخر.

.. جئنا بطائرة خاصة بمجرد علمنا بالنبأ.

.. كيف لم ينتبه المسكين .. لابد وأن المكان كان مظلمًا بعد أن انقطع عنه التيار الكهربى فجأة.

.. يجب أن يُنقل إلى ألمانيا فورًا.

.. المفروض أن نطالب بالتحقيق ، فقد يكون هناك من أسقطه عمدًا.

لم يستطع صفوت أن يمنع فضوله وهو يسترق السمع وتعمد أن يبطئ خطواته.

وعاد أحدهم يقول :

.. يقولون إن وليد كان على موعد داخل الفندق لإتمام صفقة تجارية كبرى ، الشاب طوال عمره مشهود له بالكفاءة.

.. لماذا لم يذهبوا به إلى مستشفى سبعة نجوم!

هاجمه إحساس بالقرف ، عندما سمع أحدهم يقول :

.. غريبة ، كيف سقط من فراغ المكان المخصص للمصعد .. فأنا علمت أنه على أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا .. إنه صناعة أمريكية!

التفت نحوه ليرى وجه المتحدث ، راودته رغبة شديدة لأن يصفعه بقوة .. أن يبصق عليه ..

ولكنه قرر الرحيل بعد أن اخترق الجمع عنوة .. وانصرف.

عاد إلى منزله. استلقى على فراش أبيه ، وكأنه يحتمى به من ذكرياته الكئيبة .. أو من نوازعه الانتقامية.

وبالرغم من ذلك فشل فى أن يحول بين عقله وبين إرهاصات التساؤلات الحائرة.

هل لم يغدر به الرجل حقًا ، وعذره بأن أنسته شراهته للمال ما كان بينهما من اتفاق ؟!

هل كان وليد الشرشارى يعلم ما حدث من أبيه .. أم كان هو الآخر يعيش فى غيبوبة نزواته ولياليه الفاسدة ؟!

همس إلى نفسه مرددًا :

.. لا فرق بين الأمرين ، فعدالة السماء قالت كلمتهما .. و ..

أغمض جفنيه مستسلمًا لنوم هادئ وآمن.

ساعات طويلة مضت ، وهو لا يدرى إن كان حالمًا مع خيالاته الوردية .. أم أنه يعيش واقعًا حقيقيًا.

كانت ساعات نوم كأحلام اليقظة.

لكزته أشعة الشمس المتسللة من نافذة غرفته ، وكأنها توقظه مع لحظة إشراقها .. استيقظ وعلى طرف فمه بقايا ابتسامات راضية. وبلا تردد قرر أن يعود إلى دمياط.

وكأن الطبيعة قررت هى الأخرى المشاركة فى احتفالية استقباله.

هجرت الطيور أوكارها لتغرد بأحلى الأنغام .. وتهادت

النسمات برفق وهى تلامس أغصان الشجر ، وبث الشمس دفئها فى حنو ووداعة ، وأصبح للسعادة عبق يفوح منها أطيب العطور ، وتملصت لحظة صدق من مسيرة الزمن الجميل ، وتوقفت عند لقائه بسماح ، لتشهد على حوار الوفاء.

حيث استقبلته ببشاشة ملائكية ، وبادرته قائلة :

ـ لقد طالت غيبتك يا صفوت.

أجاب بلهفة ملؤها الشوق :

ـ كنت أبحث عنك !!

ترقرقت ابتسامتها وهى تتساءل :

ـ هل فقدت عنوانى ؟!

أشار برأسه نافيًا. وسبح فى عينيها للحظات .. ثم قال :

ـ فقدت عنوانى أنا .. وعندما تذكرته أتيت إلى هنا.

أسرعت قائلة :

ـ المهم إنك عدت .. فى الحقيقة جميعنا كنا فى غاية القلق عليك.

همس بتردد :

ـ وكيف حال صحة خالتك .. أمى الحنون !

ـ إنها بخير ، وهم جميعًا بالداخل .. ومن الأفضل أن نبشرهم بحضورك.

تقلصت ملامحه .. وقال بتوجس. :

ـ أخشى من حكمهم علىّ !!

برقت عينيها بنظرة حانية .. ثم قالت بشىء من الدلال:

ـ أنت وقدرك .. فالحكم سيكون بعد المداولة .. وحينها سنساومك على طريقة تنفيذه.

ضحك بسعادة .. ثم تمتم بنبرة عاشقة وقال:

ـ بل قولى إذن .. الحب بعد المساومة.

تمت

أحمد فريد